العاشق والغزاة

د. عبد الكريم عائض الشهراني



رواية

العاشق والغزاة

رواية تاريخية

رواية

د. عبدالكريم عائض الشهراني

الطبعة الأولى
1428هـ - 2007

عبدالكريم عائض الشهراني 1427هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الشهراني، عبدالكريم عائض

العاشق والغزاة. / عبدالكريم عائض سعيد – الدمام 1427 هـ

..ص، .. سم
ردمك: 9960-9790-00-6-7

1 – القصص العربية – السعودية أ، العنوان

ديوي 039531، 813   1427 / 6045

رقم الإيداع 1427 / 6045
ردمك: 9960-9790-00-6-7

طباعة وتوزيع

دار الكفاح للنشر والتوزيع   Al-kifah Publishing house
الدمام Dammam

لوحة الغلاف

لصاحب السمو الملكي

الأمير خالد الفيصل

العاشق والغزاة

رواية

د. عبدالكريم عائض الشهراني
Dr.krim@hotmail.com

1

في شموخ كشموخ أصحابها وفي تحد سافر لنوائب الدهر وأحداث الزمان شقت قصور قرية (الشَّعَقْ) عنان السماء، وكأنها رماح انتصبت في عزة وهيبة، صلبة كرؤوس أصحابها، تعاند أعاصير الرياح العاتية، ولا تسمح منها إلا ما صفرت بها نوافذها الضيقة.

هي سكن لأهلها وحصون منيعة لسكانها، وقلاع مهيبة، وشرفة للحراسة، وفرجة عند المسرات.

لا تفرق بينها إلا أحواش صغيرة المساحات تلتصق بها أحياناً بيوت الفقراء أو أعشاشهم. تتألف غالباً من ثلاثة أدوار ومن دورين والقليل من الأربعة والخمسة، مبنية من الطين القوي جداً، المصنوع على شكل (مداميك) صلبة جدا وعريضة يصل عرض أغلبها إلى أكثر من ثلاثة أرباع المتر، مربعة القاعدة، تتسع في الأسفل وتضيق بشكل تدريجي إلى الأعلى، تزينها كثرة نوافذها الصغيرة المحلاة بالجص الأبيض أو الصبغة الطينية الحمراء الداكنة.

هذه القرية هي إحدى القرى المفقودة في متاهات الخيال الواسع في أحضان مدينة خميس مشيط التاريخ، أحببنا أخبار أناسها الذين تطهرت قلوبهم بالإيمان، وتشربت طباعهم بالحب والإخاء، والنجدة والمنعة.

في هذه القرية يقع زقاق لا نهاية له إلا بيت صغير يقع في آخره فكان هذا الزقاق بحق منزلاً كبيراً لنازليه، يعيش أهله أحلاماً وآلاما تخلطها الأقدار، لا ينفصل ألم عن حلم ولا يمتاز حلم عن ألم، ولكن كلها تذوب على صفيح الأمل المتجدد كل عام تنبلج فيه أيام محرم الجديد.

يعيش في مدخل هذا الزقاق وعلى زاويته اليمنى وفي قصر شامخ يتألف من أربعة طوابق الشيخ الفاضل (منصور بن ثابت) وهو الشيخ المطاع في القرية كلها، بل واحد من أعيان قبيلته الكبيرة، وله كلمته المحترمة بينهم، يشاركه في العيش في هذا القصر زوجته (سَرّا) وابنه الشجاع (ثابت) وابنته الجميلة (نورة) .

يلي قصر الشيخ منصور في نفس الجهة اليمنى بيت قديم تداعت بعض أركانه، يتألف من طابقين، يسكن فيه شاب أعزب يدعى (سعيد بن محي) .

أما ذلك المنزل الذي يعتبر السدادة في آخر الزقاق فيتكون من طابقين، قد رسم الزمان على صفحاته تعاقب الأيام رغم اللمسات الجميلة التي تزينه من جص ونقوش، تدل على ذوق رفيع لأهله الذين ينقشونه ويزينونه كل حين، وينزله جار للشيخ منصور يدعى (مبارك بن حزام) الذي تتألف أسرته من ابنته الحسناء (سارة) وزوجته (زهرا) وابن أخيه عامر الذي لا يتجاوز الحادية عشر من عمره. وكان مبارك هذا والذي يمتهن الجزارة قد قدم منذ زمن من المجهول، ولا أحد يعرف بالتأكيد جهة قدومه حتى الشيخ منصور الذي أجاره قبل بضعة أعوام. وهذا البيت هو للشيخ منصور أسكن فيه جاره بالمجان.

أما في الجهة اليسرى فيقع بيت خرب قد تهدمت بعض أطرافه ولا

يصلح للسكنى.

ثم بالقرب من المخرج يقع منزل الشاب (عبدالوهاب بـن محمـد) وأمه (هيا) والمكون من ثلاثة طوابق.

ينفذ هذا الزقاق في الجهة الشرقية إلى عرصـة واسـعة قلـيلاً تشرف عليه بعض منازل القرية تزينها من الطرف الشرقي أشجار السـدر والأثـل التي تفصل هذه العرصة عن قطع المزارع المتراصـة، بيـنما ينتشر بـالقرب من هذه الأشجار بعض الأكوام المتفرقة من سماد البهائم ومرابط الأبقار.

وفي وسط البرحة شجرة ضخمة مـن السـدر مخضـوبة قـد اسـودت من شدة اخضرارها، وتتفرع من عندها العطفة الضـيقة المؤديـة إلى البـئر. وتعتبر هذه السدرة أهم أشجار القرية والمعلم الرئيسي فيها.

*****

هذا هو ظرف المكان، أما الزمان فإن أحداث قصتنا أخـذت تتخلـق في أواخر شهر شوال عام 1249مـن الهجـرة النبويـة الشريفة، أمـا بالنسـبة لسني ميلاد عيسى (عليه السـلام) فإنهـا توافـق أواسـط عـام 1834م. وإذا أرّخناه بأحداث المنطقة نفسها فإنها على مفترق طـرق تاريخيـة وبـدايات دولة فتية، دولة أخذت تمد جذورها في تاريخ البلاد، مستقلة حيناً وتابعـة لدولة الدرعية حيناً آخر، إنها إمارة آل عائض، الـذين بـدأت أول إمـارتهم بمؤسسها عائض بن مرعي التي استلمها من ابن عمه علي بن مجثـل بعـد ما مات في الثاني عشر من شهر شوال عام 1249 هـ، فبنى إمـارة آل عـائض

المعروفة في تاريخ المنطقـة، لكـن عائضـاً لم يهنـأ بالإمـارة في أيامهـا الأولى، فقد انتـقض أمير (أبوعريش) على طاعته، ومـن هنـا بـدأت رحلـة الحـرب تتجدد على عسير، وبدأ عائض يقودها بنفسه مرغماً.

*****

في صباح يوم أطل على أهل القرية الساكنة

لم تشرق الشمس لكن نسائم الصباح العليلة أخذت تنعش أصـوات المبكـرين إلى مـزارعهم وهـم ينـادون ـ كعـادتهم ـ أبنـاءهم وعمالهـم إلى العمل، نافضين عن نفوسهم غبار الكسل والدعة.

الطقس في كل صيف في هذه البلاد يبدو أكثر إنعاشـاً وأرق نسـيماً، فالمنطقة بشكل عام جبلية باردة وأجمل ما فيها طقسـها المعتـدل، حيـث يرق النسيم وتتسابق الغيوم في السماء مبشرة بـالمطر ومنـذرة بالصـواعق والرعد القاصف أحياناً.

صوت عبدالوهاب هو أيضاً ارتفع وهو يحمل المضمدة عـلى كتفـه ويسوق ثوريه السمينين ويقول:

ـ لا إله إلا الله .. اللهم صل على محمد.

حتى إذا حاذا بيت صاحبه سـعيد بـن محـي الـذي يعمـل معـه في مزرعتـه ـ إذا أحتـاج إلى مسـاعدته فيهـا ـ رفـع رأسـه نحـو النافـذة وقـال بصوت مرتفع:

ـ أسرع يا أبا محي طلعت الشمس. سرحنا إلى العمل.

عبدالوهاب ذو الواحد والعشرين ربيعاً ابن لأرملة تدعى (هيا بنت محمد العسيري) وتبلغ من العمر أربعين عاماً، قتل زوجها (محمد بن ناصر الشهراني) في معركة شرسة حينما كان يقاتل مع أخواله وأهل زوجته في جبل عسير ضد حملة محمد علي باشا عام 1230 هـ وكان ابنها آنذاك رضيعا، فانتقلت به إلى أهلها، فتربى الصبي في كنف أخواله في جبل عسير، تربية صالحة، تعلم عندهم شيئاً من القرآن والكتابة والحساب وأجاد الفروسية. ولما بلغ أشده جاءت به أمه إلى بيت أبيه المكون من ثلاثة طوابق في قرية الشعق ليهتم بمزارع والده التي أوكلوها إلى أحد الجيران سنين طويلة، وهو مع شدة بره بأمه وحسن أخلاقه حسن المنظر، أبيض البشرة، شديد سواد الشعر، له لحية خفيفة تكسو ذقنه وعارضيه، له عينان سوداوان في غير ضيق ولا اتساع، يفرق بينهما أصل أنف دقيق ضيق الفتحتين، يشرف على فم واسع قليلاً دقت شفتاه، وله ثنيتان متفرقتان تكون أكثر وضوحاً بل جمالاً حينما يفتر ثغره مبتسماً، متوسط القامة، يميل إلى الطول، نحيل في غير هزال، يظهر عليه الوقار في حديثه ومشيته، يحترمه أهل الحي كلهم.

أما أبو محي فإنه يكنى بأبيه أحياناً كما جرت عليه العادة لمن لم يولد له ولد بعد وهو يدعى سعيد بن محي العسيري، قتل أبوه في بلاد عسير وهو صغير في حملة محمد علي باشا الأولى عام 1230هـ أيضاً مع صديقه أبي عبدالوهاب، فتربى في القرية التي تربى فيها عبدالوهاب، حتى إذا كبر جاء إلى خميس مشيط مع صديق طفولته عبدالوهاب بن محمد، فأسكنه الأخير بيت أبيه القديم الذي ورثه من جده، وهو ابن نجار ماهر لكن أباه قتل وهو صغير، فلم يتعلم من أبيه مهنته فعانى من الفقر والحاجة، لكنه شديد البنية، ضامرها، طويل القامة أبيض البشرة يميل لونها إلى الصفرة، له عينان ثاقبتان تميل إلى اللون الرمادي قليلاً، له جبين

ضيق تقرب شعيرات رأسه من حاجبيه قليلاً، وأنف كبير، له لحية خفيفة تكسو معظم ذقنه بينما تتناثر على عارضيه. يعرف بشجاعته بل وتهوره أحياناً.

خرج سعيد من بيته ولحيته تقطر ماء وقد شمّر عن ساعديه وعصب رأسه بعمامته، واحتزم بخرقة بالية، فأخذ بخطامي الثورين من يد عبدالوهاب بعد أن سلّم عليه، وهو لا يزال يلهج بالتهليل والذكر، ثم اتجها شمالاً حتى وصلا إلى السدرة التي قد طوق جذعها الضخم كومة كبيرة من السماد، ثم انعطفا إلى الشرق ليسلكا العطفة المؤدية إلى المزارع.

لم يكونا الوحيدين الذين استيقظا باكراً، فالقرية كلها بل أهل البلاد غالباً لا يعرفون إلا البكور، فهم لا يسهرون طويلاً ثم لا ينامون بعد أداء صلاة الفجر في المسجد، فمنهم من يوقد ناره ويصنع قهوته، ومنهم من يسبق إلى العمل ثم يلحقه أهله بالقهوة والفطور في وسط زرعه وعند مائه وحرثه.

أخذت الشمس ترسل أشعتها على أعشاش الطيور التي لم تهدأ منذ أن بزغ الفجر وهي ترفع تسابيحها، بينما استقبلت مجالس البيوت العالية أسفاراً من تلك الأهازيج محملة برسائل شمس الصباح البكر، فكانت أشعة الشمس رسائل أمل باسم ليوم جديد تبث في النفوس الفرح والعزم والثقة.

تفتحت على أطراف المزارع والسبل وأكناف الأحجار وأوساط الحقول زهور أبدع الخالق سبحانه في صنعها، تلونت بكل ألوان الطيف البديع، تفاوتت في الحجم والخلقة، لكنها تساوت في إفشاء جو من

الحياة الجميلة الزاخرة بأطايب السعادة والحبور.

كانت أطراف شجرة السدر ترسل قطراتها الندية من طل أرخى سدوله عليها ليل البارحة، بينما أبقت أوراق عراض كأوراق شجر التين والخروع على قطرات الندى فوق صفحاتها، وهي تهتز أمام ناظري عبدالوهاب الذي وضع المضمدة على أعتاق ثوريه وشدها، ومد حباله الجلدية ثم ثبتها في أفواه (الغروب) ـ وهي الدلاء التي يسحب بها الماء من البئر ـ وما إن جرت الحبال على العجلة التي أخذت تشدو بألحانها، وهبطت الدلاء، حتى ارتفع صوت سعيد بن محي بصوته الشجي:

ـ لا إله إلا الله .. والله أكبر.. أصبحنا وأصبح الملك لله.

ثم ضرب ورك الثور الأيمن بسوطه فانطلق وكأنه هارب من صرير البكرات، وما هو ـ في الواقع ـ إلا يسحب مع شريكه الدلاء الهابطة في البئر ليرفع الماء إلى صفحة الأرض، لم تكن المياه بعيدة عن سطح الأرض في هذه الديار، فهي لا تتعدى في مثل تلك الأيام وبعد سيول معتادة عن قامة الرجل، إذ إن السيول قد أروت المزارع واحتبست المياه باطن الأرض غير بعيدة عن واردها.

هرول الثورين في (المنحى) وهو الطريق الذي شق لها أمام البئر ينخفض عن سطح الأرض قليلاً ويأخذ في الانحدار كلما ابتعد عن البئر بشكل تدريجي بسيط ليساعد الثيران على الانحدار لسحب الدلاء إذا امتلأت بالماء فإذا عادت في الصعود تسحبها الدلاء المثقلة بالحجارة وهي هابطة إلى الماء وهكذا.

نظر عبدالوهاب إلى صاحبه وهو يهرول بكل نشاط وحيوية وقد

ملأ الفضاء بتهليلاته وتكبيراته وتسبيحاته الملحنة فسُر وأخذ مسحاته فلاح بها ثم أنزلها على كتفه ثم اتجه نحو المكان الذي انطلق إليه الماء يسابقه، وأخذ يضرب بها الأرض برفق وكأنه يخشى على ذراتها أن تتألم من فأسه، فهي التي أخرجت هذا الحقل البهيج الذي اكتسى لوناً ذهبياً يشرح الصدور، فرغم اختفاء اللون الأخضر من نبات القمح وابتداء جفاف أوراقه وسنابله؛ إلا أن ذلك الجفاف هو تباشير الخير وقرب الحصاد الذي طالما انتظره الناس، فالموسم هو موسم القمح الذي تتعلق به آمال المزارعين، فمنه تسدد الديون، وبثمنه يتم شراء بقية الغذاء البسيط والملبس المتواضع والبهائم وغيرها.

جعل عبدالوهاب ينقل بصره في بهجة قطرات الندى وصفرة القمح الذي كان لحفيفه عزفٌ يأخذ بتلابيب قلبه فأخذ يناجي نفسه:

ـ آه. . متى أقضي ديني؟ متى أبيع هذا القمح لأشتري لأمي ثوباً عسيرياً مزركشاً مثل ذلك الثوب الذي ترتديه زوجة مبارك فتفرح .. إن شاء الله سأشتري سجادة عجمية مثل تلك التي في دار الشيخ منصور فأفرشها في مجلسي قبل أن أتزوج .. بل سأشتري سرجاً جديداً لفرسي .. ولسوف أشتري باروداً.. ورصاصاً أصنعه بنفسي.

وعندما ذكر الرصاص، وتذكر الحرب القادمة التي بدأت تدق طبولها في تهامة، فالأمير علي بن مجثل أمير عسير الذي أحبه الجميع قد مات في هذا الشهر وأمسك بمقاليد الحكم شاب لم يعرف الناس سياسته بعد، ولن يهنأ أبداً بالحكم قبل أن يتجرع ويلات حروب ضد أعداء يصنعهم أبناء وطنه، أو يتداعون عليه من خارجه، إن موت والده برصاص الحرب الآثمة لم يزده إلا رغبة في الانتقام ممن غدر به، لكنه لا يتمنى أن يأتوا إليه بل يرتقب متى يأمر الأمير بالزحف إليهم، ولكن أين

وكيف؟ لا يعلم. وكادت أطياف الحرب أن تفسد عليه يومه فانتبه ورفع مسحاته إلى أعلى ثم هوى بها على مفرق الماء بحنق، لتتناثر قطراته مع ذرات التراب مصحوبة بأوهام سوداء قاتمة.

وتقدمت الشمس بعظمتها التي وهبها الخالق إياها إلى منازل الضحى، وارتفعت لتُرى من فوق بيوت القرية البعيدة نحو الشرق، لكنها لا زالت عاجزة عن تفريق النسائم الباردة، ولم تستطع أن تتسلط إلا على أشجان الزهور التي استقبلتها بثغورها الجميلة، ونفضت بعض قطرات الندى عن أشجار متعجلة.

ومن هناك ومن تحت سدرة السبيل أقبلت امرأة في الأربعين من عمرها، تحمل على رأسها طبقاً مصنوعاً من سعف النخيل، بينما تحمل يديها دلّة عدنية وفنجانين فخاريين ثقيلين، إنها السيدة هيا، أم عبدالوهاب، قد أحضرت الفطور للشابين، لم تكن لتتأخر كثيراً كما تفعله بعض البيوت عن أبنائها، لقد أحضرت في قُفّتها قرصين من البر الأسمر، وليس لهما من الحض إدام إلا القهوة العربية التي لا تعرف من الحوائج إلا النخوة والزنجبيل.

والسيدة هيا صغيرة الجسم، تميل إلى القصر قليلاً، لها عينان صغيرتان سوداوان، وأنف دقيق ينتصب في وسط وجه مستطيل أبيض مشرب بحمرة، ورغم أنها في الأربعين إلا أنها لا زالت تتمتع بجمال أهل الجبال الفاتن، تلف خمارها الأسود من تحت ذقنها، وقد عصبت رأسها كبقية نساء البلاد بمنديل أحمر، بينما يبدو من تحت الخمار أطراف منديل أحمر آخر يضرب إلى أسفل صدرها.

رآها سعيد فانشرح صدره وتهللت أساريره، وسال لعابه، فرفع

صوته منشداً

ـ يا مرحباً يا عمتي هيا   وبالفطور من (إيدك) الطيبة.

لم يكن ليصعب على سعيد أن ينشئ كلاماً يرصفه كيف شاء، ثم يلحنه ولو لم يكن من الشعر في شيء.

ضحكت السيدة وأنزلت ما في يديها على طرف الحاجز العشبي الذي يفصل بين الزرعين، وما إن استقر مكانه حتى قذف عبدالوهاب بمسحاته ثم أقبل على أمه يمتدحها ويداعبها تملقاً. فصاح به سعيد هازلاً:

ـ أصبر يا ولد هيا .. لا تأكل حتى آتيك.

فأجابه عبدالوهاب مداعباً:

ـ خلك مع إخوانك (يعني الثورين) حتى أناديك. فأوقف ابن محي الثورين بعد أن صبت ماءها، ثم هرول إلى الطبق فانقض على أكبر القرصين فانتشله وهو يضحك ويقول:

ـ هذا لي.

ورغم تواضع نوعية الفطور إلا أنه كان عندهما أطيب من لحم جدي مشوي. فالبرّ آنذاك فخار الطعام، والحال عند الناس ضيقة، وقد تعودوا على مثله ودونه.

وبينما هما يأكلان وينظران إلى الحقول ويداعبان أحلامهما بالثمن لعبدالوهاب والأجرة لسعيد، إذ خرج عليهما رجل من بين شجرتين من الأثل اصطكت ببعضهما البعض من جهة الوادي ثم رفع صوته الخشن

قائلاً:

ـ السلام عليكم يا رجال.

ردا عليه السلام.. بعدما فاجأهما بحضوره

قامت أم عبدالوهاب ومكثت غير بعيد، وجلس الرجل أمامهما على أطراف أصابعه قبل أن يسمع منهما دعوة واجبة أو نحوها.

كان الرجل قد احتزم بخنجر رثة الهيئة، وفي يده عصاً غليظة معقوف رأسها، وعلى رأسه عمامة لو عضها كلب لمات من شدة اتساخها، تظهر عليه معاني العوز والفاقة، وجهه قد غلبت عليه سمرة صنعتها أشعة الشمس المحرقة، وحذاؤه من جلد بعير أُعد بغير إتقان. ظهر على شيبته المتناثرة وقار، وكان قد أثر الخجل على محياه من دخوله عليهم فجأة، ورغم أن علامات الجوع تبدو على محياه إلا أنه رفض أن يشاركهم فطورهم مع إلحاحهم عليه، لكنه قبل فنجاناً من القهوة، ثم جعل يجيل النظر في وجهيهما، ثم أبقى نظره برهة مصوبا على عبدالوهاب و قال بهدوء:

ـ أنت ابن محمد بن ناصر .. أليس كذلك ؟

فزع الشاب من سؤال الرجل ومن نظراته ـ ولا عجب من فزعه ذلك الحين، فالناس يسألون أحياناً ويقتلون بعد السؤال لثأر قد لا يعلم الضحية سببه ـ ووضع يده على مقبض خنجره، وقال:

ـ نعم أنا هو على خير وشر.

ضحك الشيخ البدوي، وأبدى إعجابه بـالفتى، ثـم أشـار بكفـه أن لا عليك، وقال:

ـ هوّن عليك يـا بنـي .. خـيراً إن شـاء اللـه .. ومثلـك لا يخـاف مـن دائنه.

تغير وجه الشاب وقال بصوت خالطته الحدة:

ـ ماذا؟ .. أنا مدين لك بشيء؟

ندّت من صدر الشيخ زفرة ثم قال:

ـ نعم يا بني، أبوك (رحمه اللـه) كـان صـديقاً لي، وكنـت آتي عنـده بجلبي، فإذا بقي منهـا شيء لم يبـع في السـوق أتركهـا عنـده فيبيعهـا لي .. وكانت أخوّتنا كبيرة.. لكن هذه هي الـدنيا وكلنـا سـنذهب إلى مـا ذهـب إليه.

اختلج فؤاد عبدالوهاب وعلم أن الرجل هو من قـد سـمع بـه منـذ زمن لكنه لم يتقدُم فنسي أمره، فقال للبدوي:

ـ ولكن يا عم من أنت؟

ـ أنا علي بن سلطان .. ألم تسمع بي من قبل ؟

تنحنح عبدالوهاب واستحيا من تجاهله للرجل، وقد نفـث الهـم في نفسه وأُشرب وجهه بشيء من السواد، فقال وقد ظهر التأثر على صوته:

ـ حياك الله يا عم، وكم يدين لك أبي رحمه الله؟

ـ ثلاثين ريالاً فرنسياً لا غيرها، أخذ بعضها حينما بنى بيته وبعضها حين تزوج بأمك، ولما مات (رحمه الله) استحييت أن آتي إلى أمك، فلما علمت أنك قد كبرت، وتستطيع أن توفي دين أبيك أتيتك وأنت تعلم أن الميت مرهون بدينه.

كانت كلمات البدوي كالصواعق تنزل على رأس الشاب، وعلى أمه التي تسترق السمع من مكانها، لكن ذلك هو قدر الله، التفت بحزن إلى الزرع فرأى بهونا قد تغشاه، وبدت له أحلامه فيه ـ وربما في مواسم قادمة ـ قد تهاوت، فلن يتنعم به أبداً وأبيه هناك مغلولاً بدينه.

التفت إلى الرجل الذي سكت ينتظر رده وقال له:

ـ أبشر يا عم (إن شاء الله) سوف أقضي ـ دين أبي. تأتي إلينا إذا حصدنا وما وجدناه أعطيناك إياه، والله يعين ويشكر فضلك على صبرك علينا.

ارتكز البدوي فرحاً وقد امتلأ وجهه سروراً، وكأنه ـ في هذه الظروف ـ لم يكن متوقعاً من ابن صاحبه أن يوفي دين أبيه، وهو بهذه الكثرة وهذا القدم. وقال لعبد الوهاب:

ـ أصلحك الله، ووفقك يا بني .. والله لولا أنه قد مسنا قحط أهلك الكثير من حلالنا العام الماضي ما جئتك الآن، ولكن لا تجهد نفسك فما تيسر أعطنا، وما عسر عليك فالسنون قادمة للحي، والسلام عليكم.

لم تكن كلمات البدوي الأخيرة لتهدئ من روع عبدالوهاب، فالنار قد اتقدت في جوفه خوفاً على والده، وشعوراً بمسؤولية دين لم يكن في الحسبان قضاؤه.

حاول الشاب أن يستضيف الشيخ للغـداء، لكنـه أبى وانصرـف أمـام عينيه وعيني والدته التي امتقع لونها واسودت الدنيا في عينيها.

*****

2

تتميز قرية (الشعق) بقربها من موقع سوق خميس مشيط المشهور، وإن كان لهذه الميزة فائدة عظيمة لأهل الحي الذين يمارسون التجارة بمختلف أنواعها في هذا السوق؛ إلا أن موقعها المتطرف جعلها أكثر عرضة لهجمات الغزاة القادمين من الشرق ومن الشمال وخصوصاً من بلاد الحجاز الذين استمروا على مدى عشرين عاماً يعيدون الكرة تلو الكرة لغزو عسير، حيث كانت خميس مشيط الجسر المهيض الجانب إلى جبل عسير العاصمة، فكانت تتجرع كأس الظلم أولاً.

ليست هذه هي المثلبة الوحيدة لموقع القرية فحسب، بل إن أهلها يعانون كثيراً من الضيوف المتسوقين من بدو وقرويين الذين يفدون إلى البلد في ليلة الخميس، والذين يعتبرون أنفسهم أضيافاً ولهم حق القرى، وأن ضيافتهم فرض على أولئك المساكين الذين يشاركونهم الانتماء إلى نفس القبيلة والعادات العربية والإسلامية. وإن كان بعض الضيوف لا يبخل بقليل من السمن أو ما يجلبه من أنواع الحبوب.

وقد كان بيت العجوز (جمعة) العرجاء أكثر بيوت القرية إيقاداً لنار

الضيوف حيث لا يخلو بيتها كل يوم أربعاء وخميس من أهل تندحة الذين يفدون إليها دائماً مع قليل من غيرهم، فقد جعلت من بيتها نزلاً أو دار ضيافة لمن ضاق به الأمر واحتاج إلى القهوة أو الدفء والمبيت، لكنها في المقابل لا تُحرم من الأجر الجزيل من مضيفيها، وهي تعتبر جدة لصغار الضيوف وعمة لكبارهم، ويكن لها الجميع المحبة والتقدير.

*****

ما إن أشرقت شمس صباح يوم الخميس على برحة السوق العظيمة حتى ارتفعت الأصوات، واختلط صهيل الخيل برغاء الجمال، وثغاء الضأن بخوار البقر، وارتفع الغبار غير بعيد من الرؤوس، فسوق البهائم قد سيطر على مساحة كبيرة من البرحة، ويأتي سوق الحبوب بأنواعها والبن وغيره غير بعيد من ناحية الجنوب الشرقي، بينما ترتص بعض الدكاكين الصغيرة القليلة وأعشاش الجزارين في الناحية الغربية من سوق الحبوب. في هذا السوق ترى صوراً عجيبة أبدعها الخالق في البشر الذين يفدون إلى هذا السوق من الشرق والغرب، من السهل والجبل، من تهامة والحجاز، ومن نجد واليمن. جماعات وفرادى، بألبسة مختلفة، ولهجات متنوعة، بل وسحنات عربية مختلفة، لكن الكل يرسم تباشير الخير على وجهه، إنها تباشير محصول القمح الجديد الذي طالما انتظرته بطون جائعة من المشارق والمغارب، وقد بدأت أكوامه تكال وتبـاع في السـوق. ورغم غلاء ثمنه هذا اليوم إلا أن المتفائلين يرون أن صلاح هذا الموسم سيدفع بأرادب كثيرة منه إلى السوق مما سيخفض سعره إلى

النصف تقريباً.

وفي زحمة السوق أقبلت قافلة من المشرق تتتابع فيها ما لا يقل عن ثلاثين من النياق السود الضخمة يتوكر ظهورها رجال يحملون بنادقهم على أفخـاذهم، فنادى مناد من أهل السوق بأعلى صوته:

- من هم أصحاب هذه القافلة؟

فأجاب رجل في مقدمتهم:

- هذه قافلة آل سويدان.. وربّيع بن ناجي الناهسي (خوي لهم) .

ثم انقطعت أصوات التعريـف، فيما اتجهت القافلة إلى أطراف الســوق، وكما هو معروف فإن هذا السوق لقبيلة (آل رشيد) إحدى قبائل شهران العريضة، ومن أعراف القبائل حيث ينتشر الخوف وتتحكم أعراف القبائل فإنه يعتبر اختراق قبيلة لبلاد قبيلة أخرى نوع من التحدي يعرض القائم به إما للقتل أو النهب، وعندما يحتاج أحد أن يفعل ذلك فعليه أن يتخذ أخاً من أي قبيلة من القبائل التابعة لها هذه الأراضي، ليكون حامياً لها ويدافع كل أبناء القبيلة عن جواره وتحترم حقوقه كمجير لهم.

وتأتي قافلة أخرى هي أكبر من سابقتها من الشمال وتعرف بأنها من بلدة (بيشة) التي تبعد عن السوق حوالي (240) كيلاً نحو الشمال، ويسكنها الكثير من قبائل شهران أيضا. لكن هذه الحملة تحمل الكثير

من العياب المليئة بأنواع التمر، فكانت الفرحة بها كبيرة ممن حضر السوق.

أما الفرادى الذين يردون إلى السوق إما رجالاً أو ركباناً، فإنهم غالباً لا يُسألون.

*****

في الضحى وفي ذروة نشاط السوق أقبلت حسناء فاتنة من قرية الشعق تحمل على رأسها قفة قد أحكم غطاؤها، وشقت السوق نحو الجنوب الغربي حتى إذا تجاوزت سوق الحبوب انعطفت إلى اليمين حيث ترتص بعض عرائش الجزارين التي قد اتخذ والدها فيه عريشاً لبيع اللحم، هذه الفاتنة هي: سارة بنت مبارك التي تتمتع بأحسن أيام عمرها، فهي في ربيعها الثامن عشر، هيفاء القوام، ممشوقة القد، لها وجه مستدير كأنه القمر، أبيض مشرب بحمرة، ولها عينان نجلاوان غزيرتا الأهداب وكأنهما لغزارتهما مكحلتان فيهما كل معاني الجمال، لها أنف استدق قليلاً حتى أشرف على مبسم كالخاتم، يحمله ذقن ذو نونة جميلة جدا، تلف رأسها بمنديل أصفر قد أسقطت أحد أطرافه على جيبها، تتنقب به تارة وتدع النقاب إذا بعدت من الرجال تارة أخرى.

وصلت سارة إلى أبيها مبارك الذي كان يقف خلف قطع اللحم الكبيرة التي علقها أمام الزبائن ونشر باقي اللحم على سعف النخيل أمامه، وهو يقطع اللحم أكواماً متساوية، أما عريشه فإنه يقوم على

أربعة عيدان من السدر قد اكتست بطبقة من الدهن على مر الزمان.

السيد (مبارك حزام) هذا هو كما ذكرت لك أحد سكان ذلك الزقاق القلائل، قدم إلى خميس مشيط من بلد مجهول، ولم يكن هناك سر عند أهل الزقاق أصعب كشفاً من سر جهة مقدمه، قيل: أنه قدم من (الأفلاج) وقيل: بل من (وادي الدواسر) وقيل: غير ذلك استنادا إلى روايات مبارك وزوجته التي لم تستقر على حكاية واحدة، لكن المؤكد أنه قدم قبل ثماني سنوات إلى القرية واستجار بالشيخ منصور فأجاره وأسكنه منزله القديم، بعد أن قام مبارك بذبح شاة عند باب الشيخ يسمونها (شاة غرم)، وبذلك الجوار أصبح مبارك جاراً للشيخ يمنعه مما يمنع أهله منه.

ومبارك الذي يمتهن الجزارة أيام السوق والزراعة في الأيام الأخرى من الأسبوع، متوسط القامة يميل إلى البدانة كثيراً، بشرته تميل إلى البياض المائلة إلى السمرة قليلاً. دائري الوجه، تسيطر مساحة سوداء على أكثر من ثلث لغده الأيمن، كث اللحية، تنتشر بعض الشعيرات البيضاء في ذقنه، يعيش في منتصف عقده الرابع، يظهر على سلوكه كثرة الشك والخوف.

أنزلت سارة ما كانت تحمل على رأسها فتلقفه أباها منها برفق، وقد ألهب الخجل وجنتيها حتى أصبحتا كأنهما وردتان.

وبعدما أخذ أبوها ما في القفة أمرها بالعودة إلى البيت فوراً.

كان صاحب العريش المجاور له جزاراً آخر يدعى جوهر بن فضل، أخذ مهنته في هذا السوق أباً عن جد، تغلب على بشرته السمرة الشديدة لكنها ليست سوداء، أفطس الأنف، جاحظ العينين أحمر المقلتين معروقهما، لها أشفار حمراء، غليظ الشفتين، وجهه متأثر بضربات جدري أصابه في صغره، تجعدت في وجهه لحية شهباء اختلط شيبها بشبابها، يعتز كثيراً بماله، إذ يعتبر غنياً بين الجزارين، وعادة ما يفخر بذلك الغنى لحاجة في نفسه. لم يكن مبارك ليستسيغه أو يشعر بارتياح نحوه لكنه يبادله ابتسامات ومجاملات فاترة.

كان جوهر مشغولاً بعمله قبل أن تأتي الفتـاة التي اعتاد رؤيتها كل يوم خميـس، ولكن هذه المرة التفت إليها بعيني شيطان، تغذيها النظرة الفاجرة والوجه المليح السافر، فقال بصوت عال ومرح:

- أهلاً بابنتي سارة.

ابتسمت الفتاة من كلمته وقالت بصوت أنثوي ضعيف:

- صبحك الله بالخير.. يا عم جوهر.

كانت ابتسامة الفتاة قد أصلت وجدان الكهل، وهي التي لم ترد منها إلا استصحاب سلام على رجل كبير يتجاوز عمره عمر أبيها، ومجاملة له، ـ وكم من مجاملة أعقبت كارثة ـ فغر الرجل فاه المشوه بابتسامة أظهرت أسناناً تفرقت ومالت إلى الأمام وتشبعت أصولها بلعابه السيـال ثم جعل يشيّـعها - دون أن يدري - وهي مدبرة ببصره، ولم ينتبه حتى

خرجت من قعر صدره تنهدة كادت تخلع فؤاده، فتراجع واقتعد قطعة عود ضخم اقتطعه ليكون كرسياً حيناً ثم يتخذه لقطع اللحم إذا فسد الأول.

عادت الفتاة ولم تدر ما الذي جنته على كهل لم يعرف الحسن حلالاً، رغم زواجه من اثنتين لو بالغ أحد في مدحهما لقال: إنهما لا يفوقانه كثيراً في الحسن.

وبعد ما غادرت الفتاة حضرت الأماني تداعب خاطره توسعها مرة وتضيقها أخرى، لكنه سلك طريق الفأل الحسن، فجعل يسهّل الحزْن، ويقرب البعيد، ويجعل من المستحيل ممكناً، حتى أقنع نفسه بأنه ثري وكثير من الناس يرغب في القرب منه - على حد زعمه - وهو وإن كان أسوداً شيئاً ما فإن فارق اللون في أصحاب المهنة الواحدة لا تعطي فارقاً كبيراً وسارة وإن كانت بيضاء جميلة فليس لها من الأزواج إلا جزاراً، فالقبيلي في هذه البلاد لا يتزوج من صانع أو جزار، وكل أهل مهنة يتزاوجون من بعضهم البعض، وهو وسارة من خط واحد.

انتهى يوم الرجل وهو يداعب أمانيه ولم ينس أن يرسم لتحقيق الأماني خططاً تعوّد أن يحبك أمثالها إذا عزم على أمر خطير، ولم يرد أن ينتهي يومه حتى يخطو خطوته الأولى لتحقيق أمنيته التي أصبحت هاجساً تضخم آخر النهار.

أخذ جوهر يطوي شفراته ويحزمها سريعاً يسابق جاره بعد أن أودع

قطعاً من اللحم في قفة عنده، ثم اندفع إلى جاره يداعبه ويمازحه:

- ما شاء الله يا أبا سارة.. سوقك طيب هذا اليوم، أراك بعت كل العجل المسكين الذي صبّحته هذا اليوم!!.

ثم قعقع بضحكة سمجة أثقلت صدر مبارك المنهك.

لم يكن مبارك قد أنهى عمله في تنظيف عريشه مما التصق ببعض أعواده من نتف اللحم والشحم، فأجابه وهو منشغل بعمله:

- الحمد لله. .. الحمد لله يا أبا سعد.

قرب جوهر أكثر من صاحبه وأخذ يتكلف الضحكات التي لم ترق لمبارك لا من قبل ولا من بعد، فاستمر في عمله دون أن يبادل الرجل خفة دمه المصطنعة. وبالرغم من جوارهما إلا أنه لا يروق له.

كان الليل بهيماً شديد الظلمة، ساكناً لا تتخلله أصوات إلا همهمات بعض الخيل، ونقيق الضفادع وأنين هاون الشيخ منصور النحاسي الذي أخذ يصرخ بونّاته المتتالية وهو يطحن البن أو الهيل، بينما بدأت الأنوار الخافتة تسرق الظلام الدامس من نوافذه الضيقة العالية، إذ يبدو أن في مجلسه ضيوفاً كالعادة.

خرج مبارك من بيته متمنطقاً بخنجره حاملاً رمحه في قبضته، بعدما أخبر أهله بأنه مدعو للعشاء في الضفة الأخرى للوادي، ودعا لهم بالبركة

في عشائهم الذي كان عبارة عن رأس العجل الذي ذبحه لسوق هذا اليوم وبعض حواشيه. انطلق عبر الزقاق يتلفت إلى أبواب البيوت واحداً تلو الآخر وكأنه يخشى أن يخرج أحد فيراه.

اتجه نحو الشرق حتى إذا وصل إلى عطفة المزارع الضيقة التي بنيت أطرافها بجدران الحدائق القديمة أخذ يحث الخُطى وهو يتابع النظرات خلفه وكأنه خائف من شيء ما، وفي ظلمة الليل البهيم سطعت على الأشجار الملتفة فوق الزقاق ثمار الدرّاق الأبيض فأنس بمرآها، بينما فضلت ثمار التين والرمان أن تلتف بدثار الظلام الدامس، حتى إذا وصل إلى الوادي الذي تطامن قعره قليلاً هبط فيه فكان بياض الرمل الساطع معلماً واضحاً للساري.

حينما وصل إلى الضفة الأخرى صعد إلى الزقاق الآخر بين قطع المزارع المتراصة، فقابلته الكلاب بنباحها الفاضح، ورغم انزعاجه منها إلا أنه استأنس بصوتها. وهناك استشرفت ثلاثة من البيوت الشاهقة تشق دثار الظلام، بيت

منها لجوهر يراها دائماً ويعرفها ويحسده عليها، فقد كانا من أجمل ما في الحي

ولما وصل إليها اختار أدناهما فطرق بابه طرقة خفيفة، ثم طرق أخـرى بقوة، فخرج رأس من إحدى النوافذ قد لفه سوادان، سواد الخمار وسواد الليل وشاركهما سواد في البشرة فاكتملت المجموعة ثلاثة، وقال

بصوت أجش، يحسب على أصوات الرجال وليس منها:

- من عند الباب؟

فأجاب فزعاً من قوة نبرة الصوت الذي عرف أنه صـوت امرأة لا محالة:

- هل هذا بيت جوهر؟

فرد الصوت بصلافة:

- جوهر غير موجود.... الله لا يرده.. تجده في البيت المجاور.

ثم أعادت رأسها بسرعة، وأغلقت النافذة بقوة. ابتسم مبارك من وقاحة رد المرأة، وأدرك بأنها زوجة جوهر وأنها كانت غاضبة من وجود زوجها عند زوجته الثانية.

سار خطوات إلى البيت الآخر وطرقه متوجساً ألا يكون صاحبه فيه ويسمع ما لا يرضيه، فإذا بصوت جوهر بعد أول طرقة يجيب:

- من بالباب؟

عرف مبارك صوت جوهر فرفع صوته قائلاً:

- افتح يا رجل .. ما هذه الليلة؟

- أهلاً..... أهلاً وسهلاً.

ثم هبط جوهر سلالم بيته وثباً رغم تقدمه في السن، لكن ضيفه اليوم بالنسبة له رجل غير عادي، وفتح الباب وبالغ في عبارات الترحيب والاستقبال.

فقد قدم له الدعوة في النهار مرغماً عند دكانه لما رأى من تظاهر مبارك بالثقل وعدم المبالاة، ورأى أن مثل هذه الدعوة قد تذيب أطنان الثلج التي تحجز بينه وبينه، ورأى أن الانفراد به على وجبة طيبة قد تتيح له وقتاً ثميناً لتقديم أسمى آيات الحب والوفاء والأخوة، ولكن من نوع يفهمه هو لوحده، ولعلمه أن مباركاً سيرفض الدعوة لو خصه بها فسوف لعدم وجود الداعي الوجيه لها، لذا قال له أن لديه ضيف سيشاركه عشاءه. وبعد تردد في نفس مبارك قبل إجابة الدعوة التي أسرها فرحاً جوهر.

ثم قال ممازحاً ضيفه:

- ما هذا الرمح يا مبارك؟ كأنك خائف!

فقال مبارك:

- ومن الذي لا يخاف هذه الأيام .. يا جوهر؟

وصعدا إلى المجلس في الطابق الثالث من البيت.

اشتغلا بالحديث عن السياسة وهما لا يعرفان أن اسمها سياسة، وكان اهتمام الناس تلك الأيام منصباً على تحرك الأمير الجديد عائض لفرض سيطرته على منطقة حكمه التي ورثها بخيرها وشرها، وكانت أولى خطواته إخضاع أمير (أبوعريش) إذ زحف إليه بجيشه في هذا الشهر (ذي القعدة) وضرب الحصار على المدينة المنيعة.

كان جوهر فصيحاً قوي البيان، يتحكم كثيراً في موارد الحديث ومصادره، يدير دفته حيث شاء وكيف شاء. وفي فرصة سنحت له سأل مباركاً وهو يعلم الجواب:

- هل بيتك الذي تسكنه ملكاً لك؟

نظر إليه مبارك وأجاب بهدوء:

- لا.. هذا البيت لعمي منصور.. (أطال الله عمره) .

رفع جوهر حاجبيه إلى وسط جبينه الضيق، ومط شفته السفلى وهز رأسه مستغرباً، ثم قال:

- شيء مؤسف.. وهل يتقاضى منك إيجاراً؟

- لا والله.. منذ أن نزلته قبل عدة سنوات لم يأخذ مني قرشاً واحداً.

فقال جوهر:

- إذا كان الرجل كريماً معك هكذا .. فلماذا لا تشتريه؟

كانت كلمات جوهر تدق في أعماق مبارك الذي طالما تمنى أن يكون البيت الذي يسكنه ملكاً له، ومن جهة أخرى فإن الشيخ منصور إذا كان قد أدخله في جواره وأمنه فليس عليه أن يسكنه داره إلى الأبد بالمجان.

وبينما هو يفكر خرج جوهر إلى الغرفة المجاورة التي يسمع مبارك جلبة مواعين تعاركها زوجة جوهر لتصنع العشاء، وفيما هو يرتشف قهوته من ذلك الفنجان الفخاري الثقيل أخذ يصارع الفكرة التي بدت معقولة لولا ثمنها. بينما سمح لعينيه أن تجيل النظر في مجلس جوهر الذي تزينه رسوم هندسية مثلثة ومربعة كان للون الأخضر والأحمر النصيب الأكبر، أما المقاعد فإنها عبارة عن دكة مبنية من الطين مرتفعة عن أرضية المجلس بحوالي ذراع قد غشيت بفرش يسمى مفردها (فريقة) حيكت من الوبر الذي حيك بأشكال وألوان بديعة، أما وسط المجلس فقد فرش بسجادتين عجميتين ذات ألوان حمراء قانية تزينها خطوط سوداء وزرقاء تكون أكثر وضوحاً حينما يشتد نور لهب السراج المعدني الذي يقوى ويضعف، ويتحرك يمنة ويسرة بفعل أطياف الهواء في المكان.

غمرت مبارك لحظة من الحسد المرّ، وجعل يتساءل: كيف استطاع جزار أن يبني هذين البيتين الكبيرين، ويفرشهما بهذا الفراش الغالي الثمن الذي قلما يوجد مثله عند عامة الناس في هذا الوقت.

عاد جوهر إلى ضيفه وقد حمل في يده بساطاً من سعف النخيل ثم

فرشه على السجادة كمائدة، ثم نظر إلى مبارك مهللاً مبتسماً وقال:

- إذا كان في السنة عيدان فهذا اليوم ثالث يا أبا سارة.

فأجابه مبارك مغتبطاً:

- الله يبارك فيك يا أبا سعد، ولكن أين الضيـف الذي قلت إنه سيأتي؟

ضحك جوهر وقال:

- الله يحييك يا أبا سارة.. الحقيقة لم أدع أحداً غيرك، وكنت قد خشيت أن أقول بأنك ضيفي الوحيد فلا تلبي دعوتي، فقلت ما قلت ولا يوجد ضيف أغلى منك.

ثم خرج فوراً إلى الغرفة المجاورة فأحضر بين يديه قدحين من الفخار قد ملئا باللبن، ثم عاد فأحضر صحفة من الخشب وقد امتدت على جانبها عصيدة من القمح الأسمر وبجانبها قدحين مليء أحدهما بالمرق والآخر بالسمن البقري الأصفر، بينما جمع اللحم بجانب العصيدة كاللائذ بها من شر عبث الآكلين.

لم يبق الاثنان صامتان، فجوهر عادة ما يبادر بالحديث الذي يريده، وكانت رغبته الآن أن يزيل دهشة مبارك الذي يشاركه كثير من الناس فيها عن غناه الذي يشكك الناس في مصدره، فقال وهو يريد أن يبـين

لمبارك غناه أيضاً:

- أنا (ولله الحمد) قد أغناني الله من فضله، ولو أني بقيت على الجزارة والفلاحة لما أصبحت على هذه الحال.

تجرأ مبارك على الحديث بعدما قال جوهر ذلك وكأنه أذن له أن يتحدث في أمور شخصية كتلك فقال:

- الله يغني كل من فضله ولكن من أين لك كل الأموال وأنت جزار؟ أقصد..

بدت على وجه جوهر علامات الافتخار، فنظر إلى مضيفه بعين التعالي وأنزل عمامته وقاطعه قائلاً:

- أنا (بارك الله فيك) أبيع وأشتري في السلاح ولي أصحاب من قبيلة (رجال ألمع) يورّدون لي بنادق وسيوف ورماح من ميناء (القنفذة) و (عدن) .

- نعم ... يقولون: إن قبيلة (رجال ألمع) يعتبرون أكثر من يورد السلاح من البحر.

- نعم.. إن تجار (رجال ألمع) نشطون في التجارة بشكل عام.

أنهيا تناول الطعام، وكانت فكرة شراء البيت لا زالت تداعب أماني مبارك، وتمنى لو أن جوهراً يعيد التحدث عنها مرة أخرى، وبالفعل كان

على حسن ظنه، فقد أعاد الكرة في الحديث عن البيت وتملّكه، وأخذ يرغبه في ذلك حتى أخذ الموضوع بتلابيبه، فقد كان يحلم أن يمتلك بيتاً في بلاد شهران التي أحبها وأمن ورزق فيها، وحتى يعد أيضاً من الملاّك، سيما أنه اشترى قطعة زراعية قبل عام أنتجت له هذه السنة أكثر من ثلاثمائة مد من القمح الجيد، وامتلاك البيت سيجعله بالطبع مثل غيره من أبناء القرية يملك بيتاً وزرعاً.

بقيت مشكلة الثمن الذي يستحقه المنزل منغصاً لمبارك، فهو لا يملكه كاملاً، وفي أثناء الحديث أخبر جوهراً بهذه العقبة، ولم يكن جوهر لتغيب عنه هذه الإشكالية، ولو ظن بأنها غير موجودة لما طرح فكرة شراء البيت أصلاً، وعندما أبان مبارك عجزه عن دفع كامل قيمة البيت، أظهر جوهر نخوته ولكن هذه المرة بصوت خفيض وعينيه مصوبة إلى باب المجلس لكيلا تسمعه زوجته:

- إذا عزمت على شراء البيت (فإن رقبتي سدادة).

ثم ضرب بكفه العريضة على صدره.

ظهرت على محيا مبارك ملامح خجل ممزوج بشيء من سرور، وأراد أن يتحدث لكن جوهر قاطعه مستأنفاً حديثه:

- يسرني أن أقدم لك كل ما تحتاجه، فأنت جاري في الدكان منذ سنين، بل إننا من جلدة واحدة وأصل واحد.

كانت عباراته الأولى قد أسرّت مباركاً، لكنه حينما تعرّض للجلدة والأصل شعر بأن للكلمات مقابض تضغط على خناقه، إلا أنه استطاع أن يتجاوزها إلى ما هو أهم، فقال بابتسامة تنم عن العرفان بالجميل والخجل المصاحب للمسألة:

- صحيح يا أبا سعد أنني لا أملك ثمن البيت كله رغم قدمه، ولكنني أستطيع أن أقدم بعضـه وسوف يمهلني الشيخ منصور (إن شاء الله) حتى أوفيه.

أبدى جوهر استياءه من مبارك، وقال بصوته الذي لازال خفيضاً:

- (أفا) يا رجل، أتريد أن يظن الشيخ أنك تريد البيت بالمجان، كيف تطلب منه أن تشتري البيت وليس عندك ثمنه. أنا أعرض عليك الثمن قرضاً وترفضه؟

حاول مبارك إرضاء صاحبه بابتسامة عريضة وهو يقول:

- الحقيقة لا أريد أن أثقل عليك وبالإمكان أن يمهلني الشيخ.

- هذا ليس صواباً فقد يظن الشيخ أنك تستغل طيبته معك.

- إني عاجز عن الشكر، وصدقني أنني لم أعلم أنك من ذلك النوع النادر الذي يتصف بالشهامة والنخوة في هذا الزمان، ولن أنسى معروفك.

ضحك جوهر وقال:

- سامحك الله.. ولكن أهم ما في الأمر أن نكون أخوة، ويقدر بعضنا البعض، وأنا أعلم أني لو طلبت أغلى من ذلك وهو عندك لما ترددت.

كانت كلمات جوهر تأخذ بعواطف مبارك نحو اليمين والسرور تارة، وتارة نحو الشمال والشكوك والتساؤل. لكن العرض - مهما يكن - جيد ومغر.

قال مبارك:

- الحقيقة أني أستحي كثيراً من الشيخ منصور ولا أستطيع أن أعرض عليه هذا القول، فما رأيك أن تتحدث معه بهذا الشأن فإذا رأيته لا يمانع ففاوضه نيابة عني.

كالعادة عند استعداده لتقديم خدمة ضرب جوهر صدره بكفه مرة أخرى وقال:

- لا تحمل لذلك هماً، سوف أذهب غداً بعد صلاة الجمعة إليه وأتحدث معه بهذا الموضوع ثم أستدعيك إذا قبل مبدأ البيع.

وبعد أن مضى من الليل بعضه في مسامرتهما الأولى من نوعها بين الاثنين، نهض مبارك شاكراً لمضيفه ومقدراً حسن ضيافته وشهامته التي كانت معانيها غائبة عنه.

لم يكن جوهر من قبل ليروق لمبارك، بل كان يراه على مدى السنين

التي عرفه فيها ثقيلاً، وكانت ضحكاته المجلجلة مصدر إزعاج له، لم يكن يستسيغ - أبداً - حواراته وطرفه، ولكنه الليلة وهو يهبط السلم معه جعل يؤنب نفسه على سوء الظن به طيلة عدة سنوات.

خرج الاثنان إلى المسجد الصغير المجاور فصليا فيه صلاة العشاء جماعة لا يشاركهما فيه أحد لأن أحدا لا يسكن بقربه، ثم انصرف الضيف شاكراً ممسكاً برمحه من وسطه حاثاً خطاه مسرعا نحو منزله.

*****

يعتبر يوم الجمعة بالنسبة لمبارك يوماً غير عادي، فهو يترقب يوماحافلاً وإنجازاً فريداً، فطالما تعلق قلبه بما سينجز في ذلك اليوم حيث سيصبح فيه مالكاً لبيت طالما سكنه وأحبه، أديا صلاة الجمعة خلف خطيب حفظ خطبة (المخضوب) المسجوعة عن ظهر قلب، بل إن المأمومين يصححونه ويردون عليه إذا قفز شيئاً من عباراتها، وبعد الصلاة وفيما اختبأ مبارك في بيته محرجاً توجه جوهر إلى منزل الشيخ منصور وفاتحه في أمر رغبة شراء مبارك للمنزل الذي يسكنه. فوجىء الشيخ بهذا الطلب وأمر بحضور مبارك، ولما جاء كان مكتسياً بأرطال من الخجل، فلما وصل إلى مجلس الشيخ وقبل أن يجد مكاناً للجلوس بادره الشيخ بقوله:

- مبارك.. ! هل ضايقك أحد في بيتك من أهلنا أومن غيرنا أو منّ عليك سكناك وأنا لا أعلم؟

كانت هذه الكلمات التي تعتبر صورة غير مباشرة من التأنيب قد وخزت ضمير مبارك فأجاب محرجاً:

- لا والله ياعم منصور، لم أر منكم جميعاً إلا كل حب وكرم فجزاكم الله عنا ألف خير.

وأراد جوهر أن يرفع بعض الحرج عن مبارك فقال معقباً:

- الحقيقة يا أبا ثابت إن مباركاً لا يزال يذكركم بكل خير ويقول: لن أستطيع أن أرد جميل عمي منصور.

ابتسم الرجل الوقور في وجه مبارك وأمره بالجلوس ولا زالت بسمته تعلو وجهه الأبيض الذي تحيط به لحية بيضاء كثة جعلت من وجهه بدرا ساطعاً، لم يكن الشيخ بالطويل ولا بالقصير لكنه ربعة رجل، لا تسقط عباءته من على كتفيه، الكل يكن له حباً واحتراماً ويطيع أمره، ولا يقوم بالصلح بين أقوام إلا سدد في صلحه ووفق في إرضاء أطراف النزاع.

حينما جلس مبارك كانت حمرة داكنة قد ألهبت وجهه خجلاً من جاره الذي أسبغ عليه نعماً كثيرة، أكبرها الجوار وأصغرها إقراضه إياه بين الحين والآخر، مما جعله يفتح دكانه ويشتري مزرعته.

أدرك الشيخ منصور خجل جاره من طلبه شراء البيت فهوّن عليه وأبدى قبول اعتذاره قبل أن ينطق به، وقال:

- يا أبا سارة.. جاءني جوهر يقول إنك تريد أن تشتري البيت، وإذا كان هناك أمراً من الأمور قد ضايقك فأخبرني وسأفرجه عنك، أما إذا كنت تريد أن تتملك كما قال جوهر فهذا شيء آخر، فإن أردته فهو لك دون أن تدفع قيمته، وما أسكنتك فيه وأنا أنوي أن أسترده منك، وإن أبيت إلا أن تدفع الثمن فثمنه مع جوهر وادفع ما تستطيع دفعه وما تعسر عليك فلا يهمك أمره حتى ييسر الله لك.

زاد هذا الكلام من حرج مبارك فنهض وأقبل على رأس الشيخ فقبّله رغم تمنعه وقال:

- أسأل الله أن يجعلك ذخراً لنا يا أبا ثابت ويمتعنا بصحتك.

ثم خنقته العبرة، فلم يتمكن من الاستمرار في الجلوس معهما فخرج مسرعاً.

تأثر الشيخ كثيرا، ثم نظر إلى جوهر وقال بصوت هادئ:

- اذهب إلى مبارك وانظر ما لديه وثمّنا البيت وليدفع ما استطاعه.

*****

في اليوم التالي ثُمِّن البيت بثلاثمائة وخمسين ريالاً فرنسيا استطاع مبارك أن يدفع مائتين وخمسين ريالاً جمعها للزمان، بينما أقرضه جوهر مائة ريالاً، وبها أصبح دائنا لمبارك.

كانت هذه المائة مفتاح باب منزل مبارك لجوهر فقد أصبح يلازم مدينه كثيراً ويزوره ويستزيره ولا يمر يوم أو يومان إلا وهو عنده.

لاحظت سارة وأمها هذا الاهتمام الزائد فمقتاه وزاد كرههما للرجل الذي أصبح أكثر جرأة في حديثه وسلامه، بل لقد كانت سارة تنظر إلى ضحكاته التي تبدو فيها أسنانه الشوهاء العفنة - والتي لا تبدو إلا وقد اغرورقت بريقه - باشمئزاز بالغ وبعين شك وريبة.

كانت امرأة مبارك لا تمل من تحذير زوجها من تعميق العلاقة أكثر مع هذا الرجل الغريب الأطوار، فكان يضحك كلما سمع نصائحها ويقول:

- صدق جوهر.. يقول: إن النساء يكرهنني لأنني متزوج من اثنتين، إنهن يخشين من العدوى على أزواجهن.

*****

3

في أواخر شهر شوال أو بدايات شهر ذي القعدة من كل سنه تأتي قوافل الحجاج مارة بسوق خميس مشيط لتتزود منه ما تحتاج إليه في سفرها الطويل إلى مكة. وكانت أهم تلك القوافل هي قوافل حجاج اليمن من الذين يتجمعون في صنعاء ثم يأتون في موكب كبير عبر الجبال إلى خميس مشيط قبل يوم أو يومين من انعقاد سوق الخميس. وعادة ما تكون لهم حركة تجارية ينشط السوق بها، حيث يشترون القمح والتمر والسمن، وبعض الدواب التي يحملون عليها من إبل وحمير فيما يبيعون البن والزبيب وغيرهما. وهم يجدون كبير احترام من أهل السوق بل من العرب الذين يلاقونهم فيه، فهم ضيوف الرحمن والواجب إعانتهم والنصح لهم.

وفي أول خميس من شهر ذي القعدة كان لحضورهم أثراً واضحاً في السوق، فقد تحركت وتيرة البيع والشراء وأخرج الكثير من التجار بضاعتهم ودراهمهم أيضا.

خرج ثابت بن منصور من منزله وقد أوكل إليه والده الوقور شراء مقدار من البن من أولئك اليمنيين فهم أفضل من يبيعها. أقبل ثابت

الشاب الذي تمنطق بخنجره العمانيه يتبختر بشبابه أمام الفتيات اليمنيات وغيرهن من مرتادي السوق، وفي يده عصاه المصنوعة من شجر الشوحط التي لا تكاد تفارق قبضته، شبيه بأبيه في بياض البشرة لكن لحيته شديدة السوداء خفيفة لا تغطي جلدة خديه ولا حتى نونته، يميل إلى الطول، ريان العود، مستحكم الخلقة، مفتول الساعدين، له عينان صغيرتان ثاقبتان، وأنف ليس بالكبير ولا بالصغير، يتوسط وجها مستطيلاً، من يراه يظنه قد تاه في مشيته، وأغتر بشبابه وصحته، لكنه طيب القلب تربى في بيت فضل وكرم وحلم وشجاعة.

انعطف إلى مجمع اليمنيين حيث يبيعون ما يعرضون، وفجأة رأى جاره مباركاً بالقرب من عريشه يتهادى، يسقط تارة وينهض أخرى، وكأنه قد أصيب بكربة، أو دوار شديد، و قد تعالت ضحكات بعض اليمنيين حوله. فصاح ثابت به وقال:

- ما بك يا عم مبارك ما الذي أصابك؟!.

حاول أن يأخذ خبره منه، لكن الرجل لم يستطع الكلام، وقد وضع يده اليمنى على جبهته، ويده الأخرى ممتدة إلى الأمام وكأنه يخشى أن يصطدم بشيء أو يقع على الأرض. فأمسك به وأجلسه وعيناه زائغتان..

وبينما هو يجلسه سمع الجواب من رجل يقول:

- أعطاه اليماني شمه.

فالتفت ثابت إلى المتحدث وصرخ في اليمنيين وقد علاه الغضب:

- من الذي أعطاه الشمة؟

فقال يمني من الواقفين وهو لا يكاد يبين من الضحك:

- أنا أعطيته .. طلبني علاجاً لضرسه فأعطيته قليلاً من الشمة فحصل له ما ترى، ماذا أصنع به؟!.

ارتفع عيار الحمية في رأس ثابت إلى أعلاه، فالتفت إلى الرجل ثم رفع عصاه عالياً ثم هوى بها على هامته، فإذا هو يخر إلى الأرض، صريعاً يفحص برجليه، فلما رأى أهل اليمن ما بصاحبهم أقبل بعضهم إلى ثابت ليضربوه لكن السوق انتفض واشتبكت الأيدي، وارتفع قرع العصي على الرؤوس، وحمي وطيس الضرب بين الطرفين، وارتفعت صيحات النساء، بين مستغيثة وباكية، وصار صياح الرجال وتفاخرهم بأنسابهم يشق الغبار في السماء، وبعد كل هوية لعصى يرتفع صوت ألم، حتى أقبل رجال الأمير فوق خيولهم فهم الذين يفرضون الأمن والنظام في السوق، فاقتادوا ثابتاً ونفراً من جماعته الذين ساعدوه ومثلهم من اليمنيين الذين شاركوا في المضاربة، وأخذوهم إلى مجلس الأمير مشيط.

كان الأمير (مشيط) شديد الحرص على استتباب الأمن في السوق، وقد يتجاوز عن يعض الأمور إلا ما يسبب انتهاكاً للأمن فيه، بل إنه يعتبر أي مخالفة في السوق تعدياً على هيبته هو. فمجرد مضاربة قد تؤدي إلى

القتل، وهذا القتل سوف يؤدي عادة إلى حروب قبلية، الناس في أشد الغنى عنها.

أودع جميع المتورطين في السجن، إلا أنه بعد مفاوضات صلح تدخل فيها العقلاء عند الأمير ففك الجميع، إلا الشاب ثابت لأنه هو سبب الفتنة، أما اليمني الذي أعطى مباركاً الشمة فقد شفعت له غربته وشجة عميقة في رأسه تنازل عن أرشها مقابل أن يفك أسره ويغادر مع قومه.

بقي ثابت في السجن ولم تنفع شفاعة أبيه له عند الأمير إلى يوم الخميس المقبل، وفيه فك أسره بعد تعهده عدم إحداث فوضى مثل تلك، فأقبل إلى أهله وقد أصبح عند شباب وشابات الحي بطلاً شهماً لأنه ثأر لجاره أمام الناس، وتحمل تبعات فعلته. وكان أكثر الناس إفتتانا به سارة التي دخل ثابت السجن بسبب أبيها.

*****

في الضحى وفي حجرة نورة بنت الشيخ منصور أخذت سارة تلاعب شعر صاحبتها الناعم الطويل بمشطها الخشبي، وبالرغم من رداءة هذا المشط إلا أنه كان ينزلق بهدوء على شعر يباهي الحرير نعومة.

تتمتع نورة بربيعها السادس عشر، لم يكن شعرها البراق هو وحده الذي يزينها فبالإضافة إلى رجاحة عقلها، فإن طولها الغض وضيق خصرها

يجعل منها فتاة متميزة في الحي، كما يزيد جمال وجهها المرتوي بالحياة وبياضها المشوب بشيء من الحمرة، عينان سوداوان واسعتان وأنف مستدق، وفم كالخاتم، وجبين ساطع لا بالعريض ولا بالضيق، وفوق ذا وذاك فهي شديدة الحياء، و كانت لا تجد من فتيات حيها من تحبه وتركن إليه مثل جارتها سارة.

كانت الشمس تختلس النظر إليهما خلال النافذة بينما نفشت سارة شعرها أيضاً استعداداً لمشطه بعد الانتهاء من دور نورة التي اتخذت إحدى الوسائد المحشوة بالحشائش مقعداً.

لم يكن عند بنات حواء مشكلة في بدء حديث وإدارته، لكن المشكلة تكمن في الصراحة في إبداء المشاعر العاطفية التي ربما تفسر بغير مقاصدها أو ربما يساء فهم معانيها، فالجناية على فهم اللغة قائمة منذ أن عرف الناس كيف يتحدثون إلى أن تقوم الساعة ليس في العربية فحسب ولكن في كل لغات البشر، فالمشكلة ليس في الألسن لكنها في اختلاف الأفهام.. اللغة تمر بتحريف وتمر بتشويه .. وتمر بتعميم.. فكيف السبيل إلى فهم أصيل..

ومع ذلك فهذه الفجوة أصغر والثقة أكبر بين هاتين الفاتنتين فهما أكثر اقتراباً من بعضهما البعض، وأشد حباً فقد عاشا أحسن سني الطفولة معاً..

قالت سارة مبتسمة وهي تميل برأسها حيث يسير المشط:

- حفظ الله ثابتاً.. كانت وقفته مع أبي لا تنسى، وسوف لن ينساها أبي له.

بخبث ضحكت نورة وكانت مرآتها الصغيرة في يدها اليمنى تنظر إلى وجهها وتستمتع بالنظر إلى شعرها الذي تمشطه سارة ببطء، ثم أنزلتها إلى جانبها والتفتت إلى ماشطتها وقالت:

- ما ينساها أبوك فقط؟

فأجابت سارة بسرعة وارتباك:

- كلنا حتى أمي وأخي عامر.

افتر ثغر نورة الضيق بابتسامة ماكرة، وقالت وعيناها محدقتان بمقلتي سارة الفاتنتين:

- وأنت.. هل ستنسينها؟

فجأة احمرّ وجه سارة بشدة، واضطربت نقرة فكها السفلى، وأرتج ناظريها، فصرفت عينيها عن صديقتها إلى النافذة .. وندت من صدرها زفرة كادت تحرق فؤادها .. ولم تحر جواباً حتى قرصتها نورة من عضدها البض فالتفتت إليها واجمة وقالت:

- ما ننساه ولكن من يطالع أعلى منه تنكسر رقبته..

انتبهت نورة مؤخراً، وتذكرت أن هناك فوارقاً اجتماعية من الصعب تجاهلها، فسارة ابنة جزار، أما ثابت فهو ابن شيخ من مشايخ القبائل، ولبس للقبيلي أن يتزوج ابنة صانع أو جزار، لقد وقعت في مطب لم تدر كيف تخرج منه، وأمام هذا الحرج استدركت نفسها فلم تجد إلا أن رفعت مرآتها الصغير ثم هوت بها على رأس سارة برفق مازحة ثم قالت متصنعة المزاح:

- يا ه .. أظن أننا نسينا أمي..

ثم نهضت بعصبية أخلّت باتزانها ثم اتجهت نحو صندوقها فأخرجت قنينة عطر صغيرة، ثم أقبلت بها إلى سارة التي لا زالت تصطرع في قلبها ألوان طيفية، من حب مشوش وخوف وضيق وألم.

انتبهت سارة من رائحة العطر الثقيل، فأظهرت ابتسامة باهتة لم تكن لتخرجها لولا حياءها من صاحبتها، وخوفها من أن تفسر شيئاً من صمتها وقلقها إلى أمر لا يعجبها.

نهضت متثاقلة تريد أن تسحب جراحها إلى خارج هذه الغرفة الكئيبة، لكنها تذكرت أن شعر صديقتها لا زال منفوشاً والخروج قبل ظفره جدائل سيغضب الحبيبة ويؤكد الظنون، فأخذت خصلة من شعرها ثم جرته جالسة وهي تظهر مداعبة وتقول:

- أقول لك اجلسي ودعيني أكمل مشط شعرك يا شقية.

جلست نورة وقد تألمت كثيراً لما بدر منها من كلام، ثم أسلمت رأسها لها فجعلته كالحبال جدائل، لكن صراخ نورة الناعم كان يصاحب بدء كل جديلة، فلا زالت سارة متوترة رغم تظاهرها بعدم التأثر.

وما إن انتهى العمل في رأس الحسناء حتى نهضت سارة مستعجلة لتخرج، فأمسكت نورة بثوبها وقالت وهي تمازحها:

- بقي شعرك، دعيني أمشطه، وأنتقم منك، ولعلي أقتل الجنود المتعسكرين فيه (تقصد القمل).

تضاحكت سارة وقالت:

- القمل في رأسك يا حبيبي، سآتيك لاحقاً.

ونفضت ثوبها من يد صاحبتها، وانطلقت نحو السلم ورغم أنها أرسلت قدميها لتنزل بسرعة إلا أن هناك ما يجثم على فؤادها، إذ كانت تشعر بأنها تحمل أثقالاً أرهقتها وأثقلت مشيتها. وما إن وصلت عند باب الفناء خارجة حتى قابلها ثابت وهو داخلاً إلى البيت، فكانت المفاجأة التي لم تتوقعها، فأوسعت له مستضحكة دون وعي منها، وليتها ما فعلت وغضت طرفها، لقد أرسلت سهامها المسمومة إلى فؤاده الضعيف بنظرات ناعسة أرهقها الحرمان والخوف، كان هو الآخر قد أربكته المفاجئة فرد على الابتسامة بمثلها، وأرسل بصره إلى عيني المسكينة فاختلج فؤادها بنظرة غادرة، فكان كل واحد منهما أسبق لصاحبه.

تداركت نفسها فأنسلت إلى قارعة الطريق تجر جرحا عميقا لم يكن في الحسبان وقوعه، بينما ارتفق هو الباب وأسند ظهره ورأسه على مصراعه وقد اضطربت جوانحه، وتناثر فؤاده، وعلا الدم رأسه، وشعر بشيء لم يشعر به من قبل..

لبث برهة حتى تدارك نفسه فجر خطاه جراً إلى الداخل وهو لا يدري ما الذي أصابه. كل ذلك بسبب سهام خاطفه سددها إبليس وأطلقها الهوى.

*****

أخذت سارة تجتر آلامها ولكنها لم تنس أن تعقّل نفسها، فإن كانت القلوب لا تعرف حواجز العادات وعقبات التقاليد، فإن الفروق الاجتماعية الشاسعة بينهما لا تدع فرجه أمل.

أما ثابت فقد نصب نفسه قاضياً يحكم على المجتمع بالظلم والجهل وراح يناقش أصحابه مدى جور هذه التفرقة العنصرية التي وضعت بين الشعب المسلم فروقاً وأفضليات ما أنزل الله بها من سلطان، حتى أنه لم يجد واعظاً أو شيخاًً إلا سأله، وما أكثر أولئك الذين يقولون من أهل العلم والحكمة أن لذلك اعتبار في الشرع، ولكنه يتهم أولئك بالجهل والتحجر، فهو يسمع في القرآن الكريم قوله سبحانه (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا أن أكركم عند الله أتقاكم) ويعرف أيضاً أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى)

وقرأ أن النبي (صلى الله عليه وسلم) زوج بعض قريباته من مولاه زيد بن حارثة، وأنه زوج رجلاً أسوداً من صحابته بحرة من الأنصار.. إذا فما الذي طرأ على الناس من بعده وصارت الفتاة الحسناء كسارة مثلاً تمنع من الزواج برجل أبيض مثلها من المسلمين؟

لم تكن تلك الأحاديث تصطرع في عقله فحسب، ولكنها كانت تعتلج في فؤاد أحرقته ضحكة حسناء ونظرة فاتنة، كان يميل إليها منذ الصغر دون معاني الحب.

جمعه السمر بأصحابه في الحي عبدالوهاب وسعيد بن محي في بيت عبدالوهاب الذي ذهبت أمه في زيارة لأهلها أمس في جبل عسير، فكان الأنس أكثر لأنهم لن يتحرجوا في مطارحة الحديث الذي عادة ما يتخلل مجالس الشباب، رغم أنهم يعتبرون من العقلاء في الحي، لولا أن واحداً خالطهم كانوا يمقتون سخفه، ويحتقرون سفاهته، إنه الراعي الذي يقوم برعي أغنام الحي وهو ابن أحد فقراء البلد، دميم الخلق قد شوت الشمس صفحة وجهه فغدا أقرب إلى السواد، قصير القامة نحيل الجسم، يحمله الواحد من الشباب فيقذف به إلى صاحبه وكأنه حزمة حطب.

ارتفعت ضحكات الشباب تحت رحمة نور خافت تمنحهم إياه فتيلة صغيرة أشتعل رأسها وغرق أسفلها في ودك.

حاول ثابت أن يطرق حديث القبيلي والجزار، وهمّ أن يناقش مشكلة المشاكل بالنسبة له. وكلما أطرق وخزه قلبه خشية أن يعلم أحد

بما في نفسه، كما خشي أن يجرح مشاعر صديقه الصانع سعيد بن محي، وفيما هو يطارح أفكاره سقط إلى عقله المجرد سؤلاً إلى نفسه.

- وهل أنت متأكد من أنها تحبك؟ وهل ترضى هي أن تتزوجك؟

انتفض مكانه وبالغ في إزاحة آثار هذا السؤال المقيت وقال في نفسه:

- إننا عشنا طويلاً سوية وهي تحترمني كثيراً وبالتأكيد فإنها إن لم تحبني فإنها لن تكرهني، وهذا وحده لا يمنع الزواج.

وترجع إليه خيبة الأمل فيقول:

- آه ولكن..

فقطع الراعي حشر تفكيره بضربة ساخنة على فخذه من كفه وهو يقول:

- الله .. الله (من زِين سويّر) يا ثابت..

كانت هذه الكلمات الغزلية عبارة عن ريح أوقدت شرارة الغيرة في قلب ثابت فرد عليه ضربة الفخذ بواحدة كادت أن تخلع ذلك العظم النحيل من حوضه وقد تطاير شرر الغضب من عينيه وقال بصوت لم يعهده أصحابه منه:

- خسئت يا كلب الغنم، سارة أشرف منك ومن أبيك يا ابن...

ثم أمسك بتلابيبه وقد صوب عليه نظرة قاسية وقال:

- لو سمعت أسمها في فمك النجس مرة أخرى لخعلت أسنانك، هل فهمت؟.

كانت أعين أصدقائه قد اتسعت من غرابة الموقف وصوت ثابت الغاضب على غير المعتاد.

ما الذي آثار ثابتاً بهذه الصورة؟ أم ما هي علاقته بسارة حتى يغضب بهذه الصورة؟ ! نعم أنها جارتهم جميعاً وأن عليهم الذب عنها والتصدي لمن يسيء لها كبقية بنات الحي، لكن ثورته وضربته لفخذ الشاب ثم جره من تلابيبه أمر غير مستساغ، خاصة أن حشراً ضيف عند عبدالوهاب.

أما حشر فقد غضب وتوثب ليرد العدوان بمثله، لكنه مكث قليلاً بينما يرى الطريقة الأفضل لينتقم.

أمسك عبدالوهاب بكتف ثابت الذي زاد اضطراب نفسه وهو يحاول أن يزيد من شراسة نظراته التي بدأت تزول حينما بدأ عقله يؤوب إليه، وعرف أن الحمق كبس عليه هذه الليلة، فصبه في قالب ما كان يتمني أن يتشكل فيه... فاستغفر الله ورأى أن يبدأ في الاعتذار، لكن حشراً ارتكز واقفاً وقد نفخ الغضب أوداجه فرفع طرف ثوبه البالي عن

ساقين أشعرين أسودين كأنهما عودان محترقان. ثم نظر نظرة يملؤها الحنق والغضب ثم اتجه إلى الباب بحركة عصبية لم تدع لابن محي فرصة أن يكتم ضحكة كادت تفجر صدره.

نظر عبدالوهاب معاتباً إلى ثابت، إلا أن ملامح ثابت كانت توحي بالندم وقد مط شفتيه بابتسامة أسيفة، وأطال ناظريه إلى صاحبيه وقال:

- ما كنت أعتقد بأني سأظهر بهذه الصورة.. لكنني حتماً سأرضيه غداً (إن شاء الله) .

فقال سعيد بن محي وقد بهتت ابتسامته:

- لا عليك سوف يرضى وبسهولة .. ولكن قل لي ما هذه الغضبة والغيرة على ابنة مبارك؟ أرجو أن لا يكون إعجاباً أو..

فقاطعه عبدالوهاب:

- أو ربما حبا؟

فالتفت ثابت إليه وقد ضاقت عيناه وخفت صوته:

- ماذا تقول يا ولد هيا.. حب؟! وهل ترك الأول للتالي شيء؟

فقال عبدالوهاب وهو يضحك:

- ماذا تعني؟

قال ثابت وقد استجمع شيئا من شجاعته المعهودة:

- أقصد إن الأوائل أفسدوا علينا وراحوا لسبيلهم.

قال عبدالوهاب:

- أفصح.. أفصح.

- أعني.. أنهم في عرفهم وتقاليدهم حرموا علينا الزواج ببنات الجزارين والصناع وجعلوا بيننا وبينهم حاجزا ما أنزل الله به من سلطان.

قال سعيد وهو يداعبه كعادته:

- آه أكيد الكلام غير الكلام .. والحب دخل القلب.

صاح به عبدالوهاب مؤكداً أن الكلام أصبح جدياً وقال:

- كفى يا سعيد.. دعنا نرى ما بصاحبنا..

ثم أردف قائلاً:

- نعم.. وهذا هو الذي عليه الناس .. هل ترضى أن يتزوج أختك جزار أو صانع؟

أراد أن يستعجل في الرد لكن سعيداً لم يمهله بضحكته السافرة على هذا السؤال والتي تعني أن هذا من المستحيلات العشر .. فتمتم ثابت وقال:

- لو كان العرف يسمح لكان الأمر عادي سهل. يا إخوان أؤكد لكم أن أكثر الصناع والجزارين البيض من أعرق القبائل ولكنهم نزحوا إلى قبائل لا تعرفهم إما هرباً من جريرة أو طلباً للعيش بعد أن ضاقت بهم السبل. لذلك لا ترى فيهم معالم عبيد، أما جعودة الشعر وبعض السمرة فإن ذلك بسبب تزاوجهم بمن سبقهم في هذه المهن الذين يتزوجون بالسود أحيانا.

أراد عبدالوهاب أن يستوقفه ليتحدث، لكنه واصل حديثه قائلاً:

- وما هو عيبٍ من تجعد شعره واخضرت عيناه، أليس هناك أبناء شيوخ قبائل أخذوا من أمهاتهم القيان تلك الصفات؟

صاح بهم سعيد بن محمد وهو ابن النجار الذي لا يجيد صنعة أبيه:

- (الله يطول عماركم) .. ما أحسن هذا الكلام.. غداً إن شاء الله سآتي أخطب أختك يا ثابت عساك ما تردني.

قالها وهو غاضب من حديثهما، فهو يرى أيضاً أنها إهانة لا يرضاها لمن يعتبرهم أسياده وإن كان حرا ليس مملوكاً وهذه مشكلة عاشها أبناء

كاره.

اتسعت مقلتا ثابت مدهوشاً، ورمى سعيداً بنظرة قاسية ثم التفت إلى عبدالوهاب متعجباً.. كان يريد أن يقول لسعيد: خسئت ولكنه تذكر أن هذا يناقض ما يدعوا إليه بعد حبه المولود الذي حطّم مسلمات عظمى كان يشاركها مع قومه.

تدخل عبدالوهاب وقال:

- هيه.. هيه.. على مهلكم، دعونا من هذا الحديث فوالله لن تغيروا شيئاً. سيبقي الصانع صانع والجزار جزار والعصبية المقيتة متحكمة في حياتنا.

ثقل المجلس على ثابت، ورأى أن المجال لا يسمح بمناقشة حب قاتل محكوم عليه بالفشل فالله المستعان.

أخذ طرف ثوبه وهمّ بالوقوف، لكن عبدالوهاب أمسك ركبته بقبضته ودفعها برفق وقال:

- إلزم مكانك.. لا زلنا في أول الليل أين تذهب؟

كادت عبرة أن تخنقه لكنه طردها قبل أن تبلغ شأوها، ثم رفع حاجبيه وقد أنهكه همّ لم يعرف مثله من قبل، وقال بصوت متقطع هادي:

- عندي غداً عمل وسوف استيقظ مبكراً إن شاء الله.

ثم نهض على عجل وكأنه لا يريد أن يترك لنفسه فرصة التردد بين الانصراف والبقاء .. فلما وصل الباب أخذ يعالج حذاءه ليلبسها. قال وهو يمازح سعيداً وكأنه يريد أن يبدي عدم غضبه منه:

- تريد أن تتزوج أختي... يا. .. نسيت نفسك يا الصانع يا ابن الصانع.

ضحكوا جميعاً وبينما أقبل الجالسان على بعضهما البعض بوجهين باسمين انصرف ثابت بقلب أترع بالكآبة، ونفس ملأها الهم والغم، وفي طريقه إلى بيته ألقى نظرة ألم إلى نافذة جيرانه الذي أنطلق النور الخافت من خصاصها.

*****

4

أخذت السيدة هيا بنت مرعي دراهمها ولفتها في طرف خمارها وشدّت عصابتها على رأسها، وشدت فستانها من تحت الحزام الجلدي الذي لا يفارق مكانه إلا عند النوم لم تكن لتتزين عند خروجها إلى مكان عام، وهي اليوم لابد أن تخرج لشراء القهوة التي تعتبر من أهم ما يتناوله العربي في بيته أو يقدمه للضيوف. خرجت متجهة إلى السوق فلما وصلت نهاية الزقاق انعطفت إلى اليمين حتى إذا وصلت الزاوية التي فيها دكان السيد علي بن سعد آثرت أن تشتري من تاجر قريتها رغم وقاحته وطول لسانه، لكنها تعلم أنه لا يستطيع أن يجرح مشاعرها هي بالذات، سمعته قبل أن تصل إليه وهو يضحك بسماجة حينما قال له جاره في الدكان:

- يا شايب يا عايب.

فرد عليه وهو يضحك:

- آه يا أبا محمد! أنت لا تعرف ما يعتلج في صدري.

لكن سلام أم عبد الوهاب كان قاطعاً للحديث، ومسكتاً للضحكات. وقفت بعدما رد عليها السلام تنظر إليه وهو واقف في يده مدٌّ وقد اغرورقت عيناه البارزتان قليلاً بشيء من الدمع من كثرة الضحك كانت له جبهة عريضة وحاجبان قد غلظ شعرهما، وكان الجدري قد نقش في وجهه الممتلئ بنقشات أخفت تجاعيده، بينما فعل المقص في عارضيه وذقنه الأفاعيل. كرر الترحيب بأم عبد الوهاب، وقال بكل احترام:

- هل من خدمة أسديها لك يا أم عبد الوهاب؟ هل تريدين شيئاً؟

قالت:

- نعم يا أبا سعد، أريد بخمسة قروش بُنّ.

انزل عليّ المدّ الذي في يده على كومة قِشْر بُن كان في كيس قد طويت أطرافه ثم قال وقد أوسع في ابتسامته:

- أنت تأمرين يا أم عبدالوهاب، ولكن (أطال الله بقاءك) البنّ غال هذه الأيام.

ثم تردد في حديثه وكأنه ندم على كلامه فاستدرك قائلاً:

- لكن لا بأس.. أبشري.

ثم قام إلى كيلة صغيرة فملأها بالبنّ، والتفت إلى المرأة وقال:

- هل لديك إناء أصبه فيه؟

قالت وهي تمد إناءها الجلدي الصغير:

- نعم.. نعم.. صبه هنا.

فرفع رأسه إلى أم عبد الوهاب وأمرها أن تفتح الإناء أكثر حتى لا يتناثر البن في الأرض، ثم جعل يتأمل وجهها كثيراً، وكعادته لم يصبر من المزاح والمداعبة فقال بصوت فيه لين:

- لماذا لا تتزوجين يا أم عبد الوهاب؟! عبد الوهاب (ما شاء الله) قد كبر وأنت..

قاطعته بهدوء وقالت:

- (هداك الله) يا أبا سعد .. انتهى الشباب وذهب الجمال .. والبركة في عبد الوهاب.

بادرها مجاملاً فقال:

- ولكنك لا زلت في عزّ شبابك.

ظنت أن الرجل سيسترسل في الحديث وقد يتجاوز بعض الحدود التي طالما وضعتها حول نفسها منذ أن عرفها أهل الحي، فنظرت إليه بشيء من الجدية، فسكت ولم يطل حديثا، أما هي فقد أخذت بنها

وانصرفت إلى بيتها.

كانت هذه الكلمات رغم اختصارها قد قدحت في نفس علي أفكاراً لم يكن يفكر فيها من قبل رغم تجربته بالتعدد إلا انه لم ييأس من الولد، وان كان يعرف يقيناً قدر مؤهلاته المتدنية في إغراء النساء بالزواج منه، فوجهه ثقيل جامد، ورياله لا يخرج من مخبئه إلا نكدا. قبح وبخل ..

ذهبت المرأة ولم تعلم أنه قد تعلق وأمّل بحديثه شيئاً لم تفكر فيه، وتركته يصارع أفكارا مشوشة كلما أراد أن يجمعها تشتت وتمازجت، حتى جعلت من عقله وفؤاده قطبي رحى.

* * *

كان صباح اليوم التالي مليئاً بالحركة وبأصوات الناس، لكن بكاء أطفال ونساء ملأ فضاء القرية وهم يودّعون أقاربهم قاصدي بيت الله، الجو مشحون بالفرح والحزن .. الفرح للحجاج الذين سيذهبون إلى بيت الله، أما الحزن فإنه لأمهات وزوجات وأطفال وأحباب سينتظرون ما يقرب من الشهر على قدر كبير من الخوف، مما قد يصيب أولئك الحجاج في الطريق، فالحاج مفقود والعائد مولود، والأمن غير موجود، في ظل دولة عسير التي يحكمها أمير جديد، أو دولة في الحجاز يسيطر عليها أتراك لا يهمهم إلا ما يجمعونه من الناس.

كانت أم عبد الوهاب تراقب حركة القرية من خلال النافذة الصغيرة التي تشرف على الشارع نفسه، والقهوة في الصباح الباكر بالنسبة

لها فرض متكرر، سواء اشترك ابنها معها في احتسائها أم فضّل الخروج لعمل أو نزهة. ليس في الحجاج من تخاف عليه حق الخوف، فهي في مزاج معتدل وطمأنينة تامة، رفعت مرآتها الصغيرة بيدها حتى استقبلت بها صفحة وجهها وكأنها تراه لأول مرة، ثم أخذت تمسح وجنتيها وتفركهما بأناملها التي لم تكن بذات النعومة، لكنها ليست خشنة كبقية أصابع نساء حيها اللائي يعملن في الحطب أو الزرع، ثم أخذت مكحلتها النحاسية فملأت ميلها بكحل الإثمد فمررته بين أشفار عينيها .. ثم رفعت المرآة فرأت وجهها مرة أخرى، في هذه المرة افترت شفتاها بابتسامة رضا وإعجاب .. وجعلت تحدث نفسها:

- يا لك من وجه جميل، إني - والله - لا زلت صغيرة، وان في قلبي من الشباب ما يسع زوج طيب أسعده ويسعدني. آه.. قاتلك الله يا علي بن سعد.. كيف نكأت جرحاً كان مضمداً؟! يا ليت غيرك من نكأه لا أنت.

*****

في صباح يوم جديد وبينما كانت أم عبد الوهاب تخمّ بيتها إذ بصوت أم حمدان يقترب من الأسفل وهي تنادي بصوت متعب:

- يا أم عبد الوهاب..

انتبهت أم عبد الوهاب للصوت فردت:

- من ينادي؟

فأجابت العجوز وهي تنزع أقدامها لتعلو درجات السلم نزعا:

- أنا أم حمدان .. ما أصعب سلّمكم .. البيوت الأرضية أحسن..

واستمرت تتحدث وكأنها تؤنس نفسها في سلم يخدم ثلاثة طوابق عالية لا يتسلل إليه النور إلا بصعوبة.

قامت أم عبد الوهاب واستقبلتها في المنعطف الأخير ورحبت بها وأخذت بيدها اليمنى، وصعدت معها إلى حيث المجلس الذي ليس فيه إلا أربع قطع من البسط المحبوكة من الصوف قد مدت على الأطراف حيث المقاعد، أما وسط المجلس ففيه جاعدان لخروفين أبيضين يغطيان جزءاً من أرضية طينية صلبة تمّ فركها بأوراق البرسيم الأخضر فأكسبها اللون الأخضر الفاتح.

جلست أم حمدان التي استعانت يمينها بعصاً تتكئ عليها وشمالا بيدي أم عبد الوهاب، وما إن هبطت حتى أطلقت تأوهة عالية من شدة التعب، وقـالت:

- (قاتلك الله) يا علي.. كل ذلك بسببك.

لم تفهم أم عبد الوهاب ما تعنيه بهذه العبارة لكنها تركتها وانصرفت إلى دلّة القهوة التي كانت قد أسلمت جانبها إلى الجمر يلسعه

لتبقى القهوة ساخنة فيها، فنادتها أم حمدان بتثاقل قائلة:

- تعالي.. تعالي .. لا أريد قهوة، كنت قد شربت كثيراً قبل قليل..

- فسألتها أم عبد الوهاب:

- هل أصنع فطوراً يا أم حمدان؟

فقالت العجوز:

- لا.. لا.. يا ابنتي اجلسي فحسب أنا عندي كلام لك .. اجلسي.. اجلسي.

عزمت عليها إلا أن العجوز أبت وأمرتها أن تأتي لتجلس حولها فأقبلت إليها وجلست أمامها.

رفعت العجوز حاجبيها الذين يغطيان ثقبين صغيرين من العيون وحدّت بصرها في أم عبد الوهاب وقالت:

- إلى متى يا هيا وأنت عازبة.. ذهب شبابك و..

لم تدعها هيا تكمل الحديث فهي تعرف أن أم حمدان خاطبة توفق بين الأزواج وان هذه المقدمة معروفة مسبقاً، ومجيئها لم يكن مجرد حديث وزيارة عابرة، بل هو أكثر من ذلك، قاطعتها وكأنها لا تعرف ما تقصده العجوز:

- نعم يا أم حمدان الشباب ذهب، والبركة في ابني عبدالوهاب (حفظه الله) ما نريد إلا الستر..

كانت العجوز تعبث بيدها المرتعشة بعصاها فقبضت عليها ثم قالت بصوت أكثر جرأة:

- لا يا ابنتي.. الوقت يذهب وعبد الوهاب قد كبر وسيتزوج قريباً (إن شاء الله) وزوجته عندي - وأنا أم حمدان - ولكن يجب أن تلحقي شبابك لعلك ترزقي بأولاد.

ندّت من حنجرة أم عبد الوهاب ضحكة مرتفعة ربما سمعها المار في الشارع، وقالت بصوت ضاحك:

- الله.. الله يا أم حمدان أولاد؟ أنا خلاص ما بقي فيّ أولاد.. ولا مطمع لي في الزواج.

قالتها وكانت لا تريد أن تنطقها لكنها تنتظر - حقيقة - تكذيب صريح من أم حمدان لهذا التصريح.. فكان كما توقعت فلقد أدركتها بقولها:

- لا .. لا يا هيا لا زلت امرأة صغيرة فأنت تزوجت صغيرة وولدك لازال صغيراً، ولا بد أنك لا زلت قادرة على العطاء..

وخيّم الحياء على ملامح وجهها الذي وشّي بابتسامة فرح محاولة أن

تخفيها عن ناظري أم حمدان فقامت عازمة على إحضار القهوة وفي ذهابها ومجيئها كانت تقول:

- آه يا أم حمدان .. بالرغم من إنني ما مكثت مع أبي عبدالوهاب مدة طويلة، ومات قبل أن أعرفه حق المعرفة إلا إنني حزنت كثيراً لفقده ولم أرغب في الزواج بعده حباً له وخوفاً أن يُفرّق الزواج بيني وبين ولدي، أو أن يسـاء له، وقد خطبني الكثير لكنني رفضت.

ابتسمت العجوز في وجهها ابتسامة إعجاب، وضيّقت عينيها وهي تنظر بعطف في عينيها، وقالت وهي تشير لها بالجلوس:

- هيا.. ما رأيك لو جاء إليك خاطب؟

ضحكت أم عبدالوهاب وأظهرت على وجهها كل ملامح الاستفهام والتعجب وقال:

- خاطب؟ يخطبني أنا؟! والآن؟!

ارتفعت ضحكة العجوز، ثم قالت:

- نعم خاطب فيك أنت.. وما الذي يعيبك يا ابنتي؟

فردّت أم عبد الوهاب:

- غير معقول !! أنا لم أفكر في هذا أبداً..

- ولكنه معقول، ويجب أن تفكري فيه.

قالت العجوز ذلك وهي واضعة يدها على ركبة أم عبد الوهاب تقبضها عند كل كلمة للتأكيد والإقناع.

جعلت أم عبد الوهاب تنظر إلى أم حمدان مبتسمة ولا تدري بماذا ترد به في حينها .. لكن أم حمدان قالت:

- هاه .. موافقة؟! أقول لك من الخاطب؟!

قالت أم عبد الوهاب مستعجلة معرفته قبل أن توافق أصلاً على مبدأ الزواج، ولكنها تتمنى أن يكون ذا مكانة اجتماعية تتشرف ولو بخطبته لها فقط:

- من هو يا أم حمدان؟

فقالت العجوز:

- هو علي بن سعد صاحب دكان ورزق ومزارع..

انقبض وجه أم عبد الوهاب وهربت الابتسامة من محيّاها، لقد نفرت من سماع اسم الخاطب الذي لا تتمنى امرأة في القرية أن يتقدم إليها خاطب مثله، فبدأت جادة في الحديث وقالت:

- من؟ علي؟ لا .. لا يا أم حمدان أنت تمزحين.

قالت العجوز على عجل وهي تبدي صرامة في الحديث:

- وما الذي يعيبه، ألأنه طلق الثانية وهي لم تبق معه إلا شهر؟ إنها كانت لا تريده.

فقالت أم عبد الوهاب:

- وهذه هي المشكلة، لو كان يطاق لما طلبت الطلاق.

فقالت العجوز وهي تضحك بهدوء وتضغط بأصابعها المرتجفة ركبة أم عبد الوهاب:

- إن العيب فيها هي.. إنها كانت مسرفة وسفيهة.

فقالت أم عبد الوهاب بهدوء:

- أرجوك يا أم حمدان .. دعي هذا الأمر، أنا لا أفكر في الزواج.

أخذت العجوز السمينة تعالج المرأة وتقنعها بالزواج حتى استطاعت أن تأخذ منها وعداً بالتفكير بشرط أن يبقى هذا الموضوع سراً بينهما.

تنفّست العجوز الصعداء، وشعرت بارتياح بالغ لنجاحها في أخذ الموافقة في الحديث عن الزواج وهذا بحد ذاته نجاح.

أخذت أم حمدان طرف عصاها ثم ركزتها وسحبت ساقين كالقربتين ثم نهضت بصعوبة، واستأذنت من مضيفتها ثم انصرفت وهي تدعو وتهمهم .. أما أم عبد الوهاب فهي وإن ودعتها بلسانها فان فكرها سرعان ما انغمس في حومة تفكير عميق، وعند الباب أرسلت نظرة ساهمة خلف العجوز التي لا تدري أشر تريد بمن في الأرض أم أراد بها ربها رشدا.

كان شرط أم عبد الوهاب أن يكون الأمر سراً حتى تنتهي المداولات وتحزم أمرها في مسألة قد فوجئت بها - وإن كان السيد عليّ قد ضرب على وتر حساس أصاب لحنا يوم شراء البن - ولكن هل يبقى عند النساء سر؟!

كانت أم حمدان أكثر النساء حفظاً لأسرار عملائها، محافظة على موافقتهم حتى تنتهي المهمة، لكن أم عبد الوهاب الحريصة على بقاء حاجتها طي الكتمان، هُرعت إلى صاحبتها أم ثابت، وجلست معها طويلاً حتى استجمعت شجاعتها فأخبرتها بمجيء أم حمدان، وعرضها عليها بالزواج من السيد علي، فباركت أم ثابت الزواج إلا من السيد علي بن سعد، فهو رجل بخيل بذيء اللسان على زوجاته ولا يصلح لها زوجاً، فاقتنعت برأيها وانصرفت من عندها شاكرة.

بعد يومين اثنين خرج عبد الوهاب من صلاة المغرب فقابله حَشْرُ الراعي وهو عائد من المرعى بأغنام الحي فسلم عليه وقال بخبث:

- مبروك يا عبد الوهاب.

ضحك عبد الوهاب ورفع صوته قائلاً:

- مبروك على ماذا؟ مثلك لا يبشّر بخير.

ألجم حشر ولم يجد جواباً بل أدار له ظهره ورفع عصاه في الهواء ثم لوح بها وقال بصوت ممدود (مع السلامة) .

عظ عبد الوهاب شفته السفلى مستغرباً ثم انصرف نحو منزله، ولكنه سمع في طريقه صوت امرأة عند باب تحدث صاحبتها وهي تقول:

- الله يخيّبها .. صامت، صامت ثم أفطرت على بصل وفي هذا العمر..

فقالت الأخرى:

- قولي أفطرت على ثوم.

لم يعر لهذا الكلام انتباها .. لكنه سمع الأخرى تقول:

- إش .. إش .. لا يسمعك ابنها.

ثم صمتتا.

أدرك عبدالوهاب أنهما لم تسكتا إلا حينما رأينه فاستغرب هذا

الحديث وربطه بمباركة حشر له، ولكن كانت ضحكة صبية لعوب فيها الكثير من السفه والبلاهة قد أكدت شيئاً ما غير طبيعي، إذ قالت كلام ممزوج بضحكات بلهاء:

- مبروك زواج أمك يا حبيب أمك.

أدرك أخيراً أن في الأمر خطب .. فانطلق نحو البيت بخطى يستحثها وهو لا يلتفت إلى أي مكان إلا جادة الطريق ودفع باب الفناء بشدة ثم انطلق إلى باب البيت فدفعة بقوة ولم يغلقه، وجعل يقفز بشدة على السلالم وهو يريد أن يدعو أمه فلم يطق غضبا وحنقا.

وانتهى به السلم إلى المجلس، فوجد أمه جالسة أمام الموقد تحرك طعاماً تبتغيه عشاء، فوقف على الباب ووضع كفيه على مصراعيه ونظر إلى أمه مغضباً .. ثم قال:

- أمي .. ما الذي أسمعه في الشارع؟ كلام لا أصدقه.

اتسعت حدقتا أمه في الظلام الذي لم تقهره ومضات نور يطلقها مصباح صغير.. ثم قالت بصوت عاجل وهي لم تتوقع أبداً أن يكون السؤال عن زواجها:

- ما الذي سمعته يا بني؟

فقال:

- يقولون في الشارع أنك سوف تتزوجين. هل هذا صحيح؟!

فُجعت أمه بهذا السؤال، فهي لم تخبر أحداً إلا أم ثابت، فكيف سار الخبر أو تسرب منها.. (سبحان الله إنها امرأة لا تحفظ السر) وردّت بهدوء مصطنع:

- أي زواج تقصد؟!.

فقال بصوت جريء وبنبرة قوية:

- أرجوك يا أمي قولي لي الحقيقة.

أحست بجرح في كبريائها، ورأت أنها تصغر أمام ابنها الذي لا زال في عينيها طفل مدلل، فأرادت أن تنفض عنها بوادر إذلال، فقالت بصوت مرتفع مصطنعة حزماً:

- اجلس يا قليل الأدب.

لا حظ الارتباك على أمه فانقبض قلبه وامتلأ رحمة بها، فانخفضت هامته المنتصبة قليلاً، وتظاهر بالطاعة لكن ناراً مؤججه جعلت تحرق فؤاده فقال بصوت أقل حدة:

- أمي .. أرجوك هل من شيء؟

- اجلس .. ما بالك واقف كالشيطان..؟

خنقته العبرة فرفع صوته أكثر ليخرج كلاماً حازماً:

- أمي. أرجوك هل من شيء؟

صرخت فيه صرخة لم يعهدها، وقالت وهي تأمره بحدة:

- أقول لك اجلس يا ولد.

فانهزع صلبه فتوجه إلى زاوية في المجلس، ثم جثا على ركبتيه ووجه بصره إلى صفحة وجه أمه الذي بدأ يرفرف وقال بصوت خفيض:

- هاه.. جلست .. قولي لي؟

- أقول لك ماذا؟

- هل طلب أحدٌ يدك؟

- ومن قال لك ذلك؟

- الناس يتحدثون في الحي .. يهمسون. يضحكون عليّ أخبريني أرجوك؟

فقالت بصوت متراجع وكأنها تريد أن تعرف رأيه:

- وإذا كان كذلك، فما رأيك؟

اتسعت حدقتيه وقال بصوت لم تعهده عليه:

- ما رأيي؟ أمي هل تعتقدين أنني سأقبل؟ لن أقبل. ووالله لأقتلن كل من يقترب منك.

ارتفع الدم إلى رأس أمه واستولى عليها الغضب فصرخت في وجهه قائلة:

- ماذا؟ هل هذا جزائي يا نذل؟ ترمّلت عليك ودفنت شبابي من أجلك ثم تكون هذه النتيجة؟

زاد انفعالها ورأت أن كلامه هذا نوع من نكران الجميل وأنه يفرض سيطرته عليها متناسياً إنها أمه، وأن من حقها منذ زمن بعيد أن تتزوج كبقية نساء العالمين وفي خضم انفعالاتها قالت:

- قم قبحك الله .. وسوف أتزوج رغماً عن أنفك.

قام عبدالوهاب مغضباً واتجه إلى باب المجلس مسرعا فأرادت أن توضح له أكثر فقالت:

- والخاطب هو علي بن سعد.

قالتها وهي أكثر اشمئزازاً من ذكر الخاطب الجديد الوحيد، بل أصبحت تعتبر أن التفكير في زواجها بعلي بن سعد جرح عميق في كبريائها هي قبل كبريائه.

ورغم أن أم عبد الوهاب لم تكن في - العادة - قاسية على ابنها إلا إنها كانت تفتعل ذلك لتلقنه درساً في الطاعة إذا ما همّت بالزواج يوماً ولو بغير علي.

أخذت أم حمدان تطارح أم عبدالوهاب يوماً بعد يوم وجعلت (تشكل) علي في قوالب لم تعهدها فيه، فقد جعلت أم حمدان بخل عليّ ذكاء وحسن تصرف، وصفاقته خفة دم، وحماقته طيب نفس، ومبعث شدته على زوجته دمامتها وحمقها وسوء أخلاقها. وجعلت تصابحها وتماسيها وتخوّفها من مصيرها وتطمعها في الزواج ورغد العيش.

*****

قرب حلول عيد الأضحى المبارك على أمة الإسلام، فأخذ كل بيت أهبته، بشراء نُسُك إن لم يك في الحوش غنم. وأصبحت البيوت تغرد بأناشيد النساء الرقيقة وهن يفركن حزم البرسيم وأوراق "المجّ" العريضة أرضيات الحُجر والسلالم الطينية العريضة لتعطيها لوناً اخضراً ولتزيدها صلابة وتمنعها من تلويث الأثاث والملابس بالتراب، كما أخذت بعض النساء يدهنّ جدران بيوتهن من الداخل بالجير الأبيض لكي يكسبها لوناً ابيضاً ناصعاً، ولم تنس بعضهن التأكيد على قمم الجدران وأطراف النوافذ والأبواب، كما أن بعض النساء جلبن صبغة طينية حمراء من بين الجبال، فأخذن يدهنّ أطراف الجدران العلوية وبعض أطراف الأبواب والنوافذ، كانت مشاعر الناس خليط بين الفرحة بمجيء العيد وخوف وترقب على أولئك الذين يلبون ويذكرون الله كثيراً عند بيته الحرام، ومتابعة أخبار

الجيش الذي يحاصر مدينة (أبوعريش) منذ شهر بلا فائدة، حتى أصبح الناس يشككون في قدرة الأمير الجديد على فرض سيطرته على ما ورثه من سلفه علي بن مجثل من ملك. وإذا كان هناك فرح بالعيد عند أغلب الناس إلا أن في الحي شابان تعيسان هما عبد الوهاب الذي أصبح زواج أمه هاجسه وكابوسه، وثابت الذي يعاني من هوى بلا أمل، وسارة التي عصف بها حب لم تعرف كيف تغلغل في أعماقها، بالإضافة إلى أم ثابت التي لم يكن للعيد عندها طعماً للدوامة التي وضعت نفسها وولدها فيها.

*****

5

في صباح يوم العيد تناثرت الغيوم في السماء وطاب النسيم الذي هب من الغرب بلطائف تهامية خرج الناس إلى المصلى من قبل أن تطلع الشمس، وما إن انتهت خطبة العيد حتى أقبل بعض المصلين على البعض الآخر يتعانقون ويهنئون، وقد بدت على وجوههم معاني الفرح والسعادة، وهم يدعون بالبركة وأن يتقبل الله من الحجاج حجهم وأن يعيدهم بالسلامة والأمان، وأن يعم الأمن على البلاد والعباد، إلا أن ابتسامة ثابت كانت باهتة لم تستطع أن ترسم السعادة على وجه شاحب غلب عليه الصفار وفي عينين ذابلتين أرهقهما السهاد.

أما عبد الوهاب فقد كانت ابتسامته المصطنعة ثقيلة حزينة بل إن حركاته المتئدة تثير الشفقة، فقد كان يتوجس من كل رجل أن يسأله أو يبارك له بزواج أمه المرتقب الذي بات يتحرج منه ويعتبره من العيوب التي يعير بها.

واتجه أهل القرية كعادتهم إلى بيت الشيخ منصور لتهنئته بالعيد فهو أول بيت يدخلونه بعد الصلاة، ثم يمرون بجميع البيوت صباحاً فيتناولون في كل بيت من أنواع الفطور ما تجود به الأنفس.

دخلوا بيت الشيخ، وارتفعت أصواتهم بالتهنئة والرد:

- من العايدين. وكل عام وأنتم بخير.

- من الفايزين.

وزاد ت المزحات وطرف الحكايات، وكاد الضحك وعبارات الفرح والسعادة تفجر قلب ثابت، لكنه جعل يصابر ويتقي نظرات الضيوف.

وبعد تناول القهوة قام الناس إلى مائدة الطعام التي افترشت الأرض على بساط من سعف النخيل مكون من "العريك" المصنوع من خبز البر المهروس والسمن البقري الأصفر، وعسل النحل الحر، فالشيخ منصور ثري وكريم ولديه القدرة على توفير العسل الغالي، وأن يجعل سفرته أكبر سفرة في القرية أيضا.

وبعدما تناول الجمع فطورهم نهضوا الضيوف ومنحدرين خلال السلم مرتفعة أصواتهم:

- عود الله عيدكم.

- وعيدكم.

عادة ما يكون ثابت العنصر النشط في كل عيد، فهو صاحب مرح وطرفه، لكنه اليوم أصبح ذابلاً خاملاً يجر خطاه مع الناس وكأنه ليس معهم وفي الطريق إلى البيت الآخر تساءل الناس:

- ما الذي أصاب ثابتاً؟! إنه ليس كعادته !

- لعله مريض !.

ضحك أحدهم، وقال وهو يعني ما يقول:

- لا.. قد يكون مصاب بسهام حب غادرة.

كان تأخره عن الذهاب مع جماعته إلى بقية المنازل قد أكد أن الفتى يعاني من مشكلة حقيقية، فلا يتأخر ثابت عن مناسبة مثل تلك إلا لأمر هام جدا.

ولما انتهى الرجال سريعاً من زياراتهم وإفطارهم الخاطف الذي أخذوا من كل بيت منه نصيب انطلقوا إلى جذوع الأشجار، مصطحبين أضحياتهم من الأغنام معـهم، بينما انطلقت مجموعة تقود بقرة سمينه إلى هضبة صغيرة نحو الوادي قد انبسطت صخورها ليتم سلخ الأضحية على صفحاتها، أما النساء فإنهن اقتفين أثر الرجال في البيوت لينقضوا على ما تبقى من طعام الإفطار.

لم يستطع ثابت أن يلحق بالرجال فبقي في حجرة النوم يكتم أنينه الذي كان يخرج من أعماق قلبه، حتى ليكاد أن يفتت قلب أمه المسكينة التي تسمعه من حين لآخر ولا تدري ما الذي أصابه، ورغم قرب أخته منه ومن سارة إلا أنها لا تتصور أبداً أن يقع أخوها فريسة لحب فتاة من المستحيل أن يتزوجها..

أقبلت فتيات الحي يتضاحكن وهن داخلات بيت الشيخ منصور، لكن ضحكات سارة كانت غائبة إلا حينما تستفز، فتخرج باهتة مصحوبة بنظرات خاملة لم تعهدها صويحباتها منها، وما إن ولجت عتبة البيت حتى امتقع لونها وخفق قلبها، فلما خشيت أن يفتضح أمرها استجمعت شجاعتها، وأقبلت مع صديقاتها حتى إذا دخلت المجلس رفعت صوتها متصنعة الفرحة:

- السلام عليكم يا أم ثابت.. ومن العايدين.

كان لرفع صوتها باسم ثابت قد احدث في قلبها خفقة عظيمة ورجفة لم تعهدها. وكان ثابت في الغرفة قد سمع صوتها وهي تنطق باسمه فوجب قلبه وجبة أرعشت جوانحه فغطّ وجهه في وسادة صنعت حشوتها من الصوف ثم أنّ أنينا كادت نفسه تخرج معه.

وما هي إلا ثوان حتى انخرطت سارة مع السلم خارجة وهي تقول بصوت مرتجّ:

- عوّد الله عيدكم..

لم تستطع أن تبقى بين النساء الضاحكات الفرحات ولم تك لتداري تأثرها وحزنها وخشيت أن تكون عرضة للسؤال والإحراج، فكان السبيل الأسلم هو الهرب من المجلس.

ارتجف ثابت بسماع وداعها لكنه اسلم رأسه المذهول للوسادة

وانخرط في البكاء وهولا يدري لم يبك؟!. إلا أنه يعرف أن سارة هي السبب, وأنه أحبها بكل جوانحه وكيانه.

وربما كان يتلذذ بذلك البكاء الذي فارقه طويلاً فأخذ يخفف من كوابيس نفسه الهائمة.

تعجبت نورة من خروج سارة المبكر في يوم العيد وهي لم تسمع أن أحداً في المجلس قد أغضبها.

فلم خرجت بهذه السرعة؟ وبهذه الحال العجيبة التي رأتها عليها؟

انشغل بالها بها طوال صباح العيد، فلم تكمل مع بقية النساء إلى آخر بيت، بل عادت إلى بيت سارة الذي لم ترها فيه حينما مرّ النساء به، بحثت عنها فوجدتها في حجرتها، فاستقبلتها سارة بعين حمراوين كأنهما الجمر، وقد احمرّ وجهها حتى كأنه قد طلي بالدم، فلما رأت صديقتها نورة قد دنت منها انقضت على صدرها وضمتها، ولم تتمالك نفسها فانخرطت في البكاء. طوقتها نورة بذراعيها وجعلت تربت على ظهرها، حتى هدأ بكاؤها قليلاً فقالت نورة مازحة:

- ياه.. لقد أتعبتيني. اجلسي.. اجلسي

جلست سارة وهي تكفكف دمعها وتظهر ضحكات كاذبة مختلطة بشيء من بكاء وهي تداري شيئاً من انفعالها، فقالت لها نورة وهي تقرص لغدها:

- صحيح.. دلع بنات .. قولي لي: ما بك يا بنت؟

كان هذا السؤال الذي لا تستطيع أن تنطق سارة بجوابه لأي أحد مهما كان، ولو كانت صاحبة روحها نورة، وليس لها منه مخرج إلا الكذب فقالت بصوت أبح:

- أبداً .. لقد تلاحيت مع أمي البارحة فضربتني؟ تصوري تضربني يوم العيد !.

- هل ضربتك البارحة أم اليوم؟! حددي؟

- لا .. البارحة.. ليلة العيد من يوم العيد..

ضحكت نورة ضحكة فاترة وهي غير مصدقة روايتها، لكنها لا تريد أن تفسد يوم العيد فقالت آمرة إياها.

- هيا. قومي. دعينا نكمل العيد مع البنات.

إلا أن سارة امتنعت وأفهمتها أن وجهها سيفضح بكاءها وسيحرجها، فلا داعي للخروج، ولكنها ستلحق بأبيها بعد قليل لتساعده في إحضار لحم الأضحية إلى البيت.

كان العيد بالنسبة لسارة وثابت يوم حزن حفر في الوجدان ألماً ممضاً ويأساً قاتلا.

لكن ثابتاً اعترف - أخيراً - لنفسه بإصابته بمرض عضال كان قد سمع به، ولم يكن يعترف بأثره على الأنفس، إنه مرض الحب الذي صرع قيس وعذب قيس الآخر، ومعرفة الداء نصف العلاج، فأخذ يلوم نفسه على تهاونه بأخذ وسائل الوقاية، رغم تلذذه بالمعاناة، وجعل يضمد جراحه باستعذاب الألم وتمني الأمل، والسعي للتداوي بالداء، فخرج يوم الخميس إلى الشارع وسلك الطريق الذي تذهب سارة معه - عادة - إلى مكان أبيها ومعها طعام الإفطار أو القهوة. لكنه لم ير إلا ابن عمها عامر الذي لا يتجاوز الحادية عشرة من عمره وقد حمل جسمه النحيل وعاء الطعام فوق رأسه. كان الصبي نحيل الجسم أسمر البشرة المتأثرة بلهيب الشمس التي لا يفارقها نهاراً وهو إما لاعباً مع أترابه أو عاملاً خلف عمه في المزرعة. كانت رؤية ثابت لذلك الصبي بمثابة كابوس جديد له، إذ إن هذا يعني إسناد مهمة توصيل القهوة وطعام الإفطار إلى الغلام ومنع الفتاة من سلوك هذا الطريق الذي كان يأمل أن يراها فيه كل خميس.

لكن ذلك لم يكن الطريق الأوحد الذي سيرى فيه محبوبته، فطريق البئر أيضاً لا بد أن تسلكه لإحضار الماء كل يوم أو يومين مرة، إلا أن وقتها غير محدد، مما يصعب عليه المراقبة.

وفي عصر أحد الأيام مرت سارة بباب ثابت وهو واقف وفي يده مسحاة وقد حملت على ظهرها قربة ضخمة علقتها على كتفيها بأحزمة عريضة مصنوعة من السعف تسمى (تشانيق) وكان هو في طريقه إلى الزرع ليخدمه، فرنت إليه رنوة ساجية اكتسبها منحة كريمة

ردت إليه شيئاً من فؤاده بل رأى منها ما ردّه إلى الواقع البشري الذي فارقه إلى الخيال حينما حلّقت به تلك النظرات الأولى التي كادت أن تضمه إلى طابور مجانين الحب، أما هي فقد تشجعت وألقت السلام متأدبة محتشمة وهي تنـوء تحت ثـقل القربـة، فكان هو أكثر تأدباً فردّ السلام بمثله، وشيعها بنظرة مودع وزفرة مكتومة كادت تفجر صدره، ثم ارتدّ إلى داخل البيت مذهولاً، فقابل أخته خارجة إلى حضيرة البقر فقبض على ذراعها ثم سحبها نحو السلم ثم إلى المجلس مستغلاً فرصة عدم وجود أمه وأبيه، ثم أمرها بالجلوس وهي تصيح وتتألم من قبضته وتضحك مداعبة إياه ببعض الشتائم والألقاب، لكنه أخرسها بقوله:

- هل تحفظين السر؟

تغيّرت ملامح وجهها لكن الابتسامة لا زالت تزينه وقالت:

- خيراً إن شاء الله.

- أقول لك هل تحفظين السر؟

- نعم .. أكيد .. سرك في بئر.

- احلفي بالله.

- والله العظيم لأحفظن سرك..

جلس أمام أخته وقد بدا على ملامح وجهه بعض صور البؤس

والحزن، ثم أرسل نظرة عبر النافذة التي خلفه وكأنه لا يريد أن ينظر إلى أخته ثم قال والعبرة تخنقه:

- ماذا تقولين في سارة؟

دهشت وقالت:

- سارة؟ سارة بنت من؟

- نظر إليها وقال:

- ومن غيرها؟ سارة بنت مبارك.

اتسعت عيناها وكأنها تنتظر مالا تحمده، ثم قالت مستعجلة:

- لمن؟ لسعيد بن محي؟

تكلف ثابت ابتسامة باهته، ثم قال:

- لا أعني زواجاً .. اعني..

ثم تردد قليلاً.. ثم استأنف:

- حدثيني عنها.

قبضت بأطراف أصابعها على ركبة أخيها ثم دنت بوجهها إلى قرب

وجهه وقد تغيرت نظرتها بل كاد الغيظ أن يرسم على ملامحها صورته، ثم قالت مغضبة:

- أحدثك عن بنت الناس؟! ما بك؟ لم أعهدك هكذا؟

صرخ في وجهها صرخة مكتومة خشية أن يسمعه أحد، وقد شدّ على فكه وقال:

- الحقيقة أنا الذي أخطأت حين تحدثت إليك.

ثم شاح بوجهه نحو النافذة التي سلطت شمسها على ظهره ثم على وجهه ففضحت صوراً من الكآبة عليه، كتلك التي رأتها يوم العيد، فرقّ قلبها له وقالت بصوت خفيض:

- قل لي يا آخي، هل أحببت سارة؟

- فالتفت إليها بسرعة ونظر إليها بقسوة مبدياً إنكاره لكن انكساره فضحه، فرأى أن الفائدة في المصارحة لا المطارحة في الحديث، فقال:

- نعم يا أخيّه .. لقد ابتليت بحبها.

خفضت رأسها، وقالت:

- (إنا لله وإنا إليه راجعون) ولكن يا أخي كما أسمع أن الحب ليس قدراً محتوماً، وسوف تنسى بعد أيام.

فقال بصوت متهدج:

- كيف؟!

ثم ضرب رأسه براحة كفه واختنق صوته وقال بصوت تملأه العبرة:

- كيف؟! لا أستطع أن أقاوم ولن أنسى مهما فعلت أو ابتعدت..

- ولكنها ليست من ثوبك ولست من ثوبها.

- هذه هي البلية .. ليتنا وإياهم من طبقة واحدة.

اشتد عطف نورة على أخيها وأدركت يقيناً أن أخاها في مأزق عاطفي خطير .. فقالت:

- فماذا تريد مني أن أفعل؟

- أريدك أن ترتبي لي معها لقاء لعله يهوّن ما بي من وجد أو لعله يزول.

- مستحيل .. سارة فتاة محافظة وتعتز بنفسها وتخاف أن يمس طرفها أحد بسوء، كيف تطلب مني ذلك؟ إنها تعتبر أختنا فقد تربت معنا.

فقال بلهجة حزينة ليستوهبها الرحمة والعطف:

- أختي.. أنا متأكد من أن هناك مشاعر متبادلة .. أرجوك اعرضي لها طلبي هذا وفي مكان آمن، وصدقيني أنني سأكون عند حسن ظنك.

عندما سمعت نورة قوله: (مشاعر متبادلة) تذكرت ما بدا من سارة يوم العيد، وما تلاحظه عليها من حزن وذهول فجعلت تنظر في عيني أخيها وتفكر ثم قالت:

- سأحاول .. وأنا أعرف أنني سأفقد صديقتي.. ولكن لو كان هناك لقاء فلا بد أن أكون ثالثتكما.

- حسناً..

رتبت نورة اللقاء في بيت والدها مستغلة غياب والديها في زيارة أقارب لهما في قرية بعيدة.

كان الوقت عصراً، والناس لاهون بخدمة بهائمهم، وأصبحت سارة بعد محاولات مستميتة من نورة طوع أمرها من أجل اللقاء الساخن جدا، لم تستطع سارة أن تقاوم محاولات نورة، اندفاع قلبها الهيمان، فأقبلت مع صاحبتها إلى بيتها وكأنها مقبلة على سرقة شيء ما، كانت أطرافها كلها ترتعد، ولا تكاد قدميها تحملها من الخوف ورهبة اللقاء الذي لم تتعوده مع أحد. وصلت إلى المجلي ولم تدر كيف وصلت، المهم أنها وصلت، وسقف دماغها قد تخدر، فلما جلستا في طرف من المجلس أخذت تكفكف قدميها وتجلس القرفصاء، وجعل قلبها يجب وجيباً لم تعهده من

قبل.

أقبل ثابت من الغرفة المجاورة للمجلس وقد احتقن وجهه خجلاً، وقلبه يخفق وكأنه يضخ وقوداً لا دماً.. فسلّم ثم اتجه إلى زاوية المجلس البعيدة مرتفقاً النافذة، ثم اخذ أحد الوسائد متكأً، ليداري ارتجاف ركبه، ومعالم خجله أما سارة فقد اشتبك بصرها بخيوط البساط وألوانه خجلاً وحرجاً، ولم تستطع أن ترفعه.

فلما رأت نورة الموقف، زاد ارتباكها، وآثرت الهروب منه بنفسها، فقالت:

- أستأذنكما. سآتي بماء من الأسفل.

ألقت سارة على نورة نظرة قاسية، ونادتها بعصبية وصوت مرتجف وقد ازدادت حمرة وجهها:

- تعالي ... أين ستذهبين؟ اجلسي..

جلست نورة مترددة وقد علا على وجهها الخجل أكثر من ذي قبل..

رجع بصر الفتاة إلى البساط وكأنها تتمنى أن تذوب في خطوطه، لكن صوت ثابت رفع بصرها إليه حين قال:

- أختي سارة.. أنت تعلمين بأننا تربينا سوية في هذه القرية، بل نعتبر وإياكم أهل.. أليس كذلك؟

امتد بصرها إلى نهاية البساط جهته وقالت وهي لم ترفع بصرها:

- نعم..

فبادرها:

- وأنا.. وأنا..

ثم ألجم .. ولكنه استجمع شجاعته فاستأنف حديثه قائلاً:

- وأنا حقيقة معجب بك كثيراً .. ولا أدري ما هو شعورك نحوي.

سكتت.. وقد قطبت جبينها حتى برز مثل الأصبع بين حاجبيها خجلاً، ثم نظرت إلى نورة.

فقال لها وقد لان صوته وكأنه يستوهبها العطف:

- أرجوك قولي لي: ما هو شعورك نحوي؟.

فقالت بصوت خافت وقد لاحظ ثابت أنه خارج مع زفرة مكتومة، وهي لم ترفع بصرها إليه:

- وما الفائدة؟

- ماذا تعنين؟

- أعني انه يجب أن أعلم أن من نظر إلى من هو فوق رأسه انكسرت رقبته.

- تعنين..

ثم تردد في الكلام ثم قال:

- تعنين أن والدك جزار.

- نعم. أنت قلتها .. ولكن..

وقد امتد صوت النون في أنفها.. ثم سكتت..

- يعني شعورك نحوي مثل شعوري نحوك.. أليس كذلك؟

فرفعت نظرها إلى باب المجلس ثم نظرت إلى نورة وكأنها تؤنّبها على هذا الموقف المحرج الذي وضعتها فيه، وما إن شعرت بشيء من الضعف حتى تداركت نفسها ونظرت إليه بعينين جريئتين وأبدت كبرياء لم يره فيها من قبل وقالت:

- اسمع يا ثابت .. نحن لسنا بجزارين، بل أسياد ولكن..

ثم تلعثمت.. وسكتت.. وبدا الهدوء يسرى إلى وجهها، وبدأ بريق عينيها ينطفئ وكأن كلماتها تلك قد أزاحت عن نفسها شعوراً دونياً لم تكن تشعر به من قبل، ثم ارتكزت - بشيء من العصبية - واقفة وفيها

شيء من عدم الاتزان.

زاد ارتباكه فاستوقفها بصوت منقطع:

- أرجوك أكملي .. ماذا تعنين؟

نظرت إليه بعينين قد امتلأت محاجرهما دمعاً. وقالت:

- أرجوكما

كررتها مراراً والعبرة تخنقها ثم استأنفت بصوت مخنوق:

- أرجوك يا ثابت.

ثم هرولت نحو السلم..

بهت ثابت مكانه من حديثها وهي تقول: (لسنا جزارين) .. فماذا يعني هذا؟!

لم يدم تفكيره طويلاً حتى قطعت أخته تفكيره قائلة وهي تجلس أمامه:

- هاه.. هل استرحت؟

ابتسم بشدقه ساخراً وقال:

- استرحت؟!.... كيف أستريح وأنت تسمعين ألغازاً؟. وما زادت النار إلا زيتاً.

نظرت إليه أخته بشفقة. وقالت:

- أخي.. أرجوك.. ارفق بنفسك .. وكن عاقلاً.

غمغم ثابت ليغوص في أعماقه ليبحث عن نفسه..

*****

كنت قد ذكرت لك زيارات جوهر المتكررة لمبارك التي كانت تزداد يوماً بعد يوم، وكانت هداياه التقليدية قبل العيد ملفتة للانتباه، بل كانت مزعجة أكثر لامرأة مبارك وابنته سارة التي كان يقلقها كثيراً حب والدها لهذا الرجل الثقيل، والذي يبدو عليه الانزعاج كلما دعته: بيا عم جوهر، حتى أصبحت تكثر من هذه الكلمة.

وقد لاحظت أنه كثيراً ما يلقي عليها نظرات غريبة، ولم ترد أن تفصح عنها لأبيها خشية وقوع فتنة بينهما من أجلها.

لم يدم الأمر طويلاً حتى نزلت المفاجأة بالسيد مبارك، فقد جاء جوهر في إحدى ليالي السمر المعتادة ومعه رجل آخر لا يختلف لون أديمه عن صاحبه، وبعد ما فرغا من تناول القهوة قال جوهر بعد همهمات متتالية ونحنحات خشنة موجهاً حديثه إلى مبارك:

- الحقيقة يا شيخ مبارك جئنا لنطلب القرب منك.

تغيرت ملامح مبارك، وقد صوب نظره إلى جوهر، وقال:

- في ماذا؟

- نطلب يد ابنتك سارة؟

انطلقت هذه الكلمات إلى مركز التركيز في دماغ مبارك فشوّشته، إذ لم يتوقع يوماً أن يجرأ جوهر على هذا الطلب، سواء كان له أو لأحد من أقاربه، فقال:

- ومن يريدها؟

قال جوهر بكل دلاله عليه:

- لي أنا يا صاحبي.. ألست كفؤاً لها؟

ارتفع الدم بسرعة إلى رأس مبارك دفعة واحدة واحتقن وجهه غضباً .. ورد من فوره:

- أنت.. خسئت .. أنت لست كفؤاً لنا يا عبد السوء .. انظر إلى من تصاهر.

كانت كلمات مبارك كالصاعقة التي نزلت على هامة جوهر وهزت كيانه، فاكفهر وجهه، وتطاير الشرر من عينيه غضباً، فقد كان يظن أن

الرجل الذي استعبده بالدين لن يخيب ظنه، وفي أسوأ الأحوال سيرده بلطف، بعذر أنه متزوج من اثنتين، أو لفارق السن بينه وبين ابنته. لكن أن يقول وبكل صراحـة ووقاحة: " أنت لست كفؤاً يا عبد " فهذه إهانة كبيرة، خاصة أنه ضيف في بيته.

حشي جوهر غيضاً، أما صاحبه الذي ألجمته المفاجأة فقد كان الصمت له مكسباً فطأطأ رأسه وآثر السكوت.

قال جوهر لمبارك:

- اسمع: يا جزار ابن الجزار، لا يغرك لون جلدك، وصدقني أنك سوف تندم على هذا الرد الوقح..

ثم قام وعيناه محدقتان بشدة نحو مبارك الذي نهض أمامه وقال وقد خضع في صوته قليلاً:

- لست من ثوبنا .. ولسنا من ثوبك..

وقد همّ أن يستطرد في الحديث لكنه تدارك لسانه فسكت خشية أن يزيد الطين بلة، ثم فسح الطريق للضيفين، فخرجا على عجل وجوهر يتمتم بكلمات تهديد لم يتبين مبارك عباراتها، فتبعهم حتى خرجا، ثم أغلق الباب وعاد إلى زوجته وابنته اللتين ظهرت علامات الانزعاج والغضب والخوف على وجهيهما، فقد سمعا كل ما دار بين الرجال، وما إن انصرف مبارك متجهاً إلى مقعده ولا زال الغضب يطبخه حتى سمع

زوجته تقول بهدوء:

- أنت السبب في هذا كله..

فردّ عليها قائلاً:

- ماذا..؟ أنا السبب؟ .. ألأني..

ثم قطعت عبرة خانقة صوته.. فرق قلب سارة لأبيها فهرعت إليه وجثت على ركبتيها أمامه.. وقبلت رأسه وقالت بصوت متهدج:

- حفظك الله لنا ذخراً يا أبي.. أمي لا تقصد..

انصرفت أم سارة منفعلة وقلبها يتمزق حزناً مما آل إليه الحال..

*****

6

كان الرد العنيف الذي قوبل به جوهر قد سبب جفوة كبيرة بين الصديقين الجديدين، بل إن جوهراً أخذ يوري قلبه غيضاً على صاحبه، وجعل يحيك ليرد الإهانة بأعظم منها، ولم يك خالياً من مكر وخبث فقد قدّم ما ظن انه سيحل له أمر الزواج وتكون ورقة ضغط كبيرة على مبارك، وهو الدين الذي قدمه له حينما اشترى البيت، مبلغ يصعب تدبره في وقت قصير، ويمكن للأمير أن يسجنه إذا لم يرده عليه إذا طلبه. سلاح خبيث طالما استعبدت به أمم أمما.

بعد يومين من هذه الحادثة وبينما كان مبارك متجهاً إلى مزرعته وهو حامل مضمدته على كتفه وبندقيته التي لا يترك حمل مثلها من يملكها، بعد تردي الأوضاع الأمنية قليلاً، فوجئ بجوهر يرفع صوته بالسلام، والابتسامة الشوهاء تصبغ وجهه، فلم يرد مبارك السلام عليه واكتفى بإلقاء نظرة قاسية عليه ثم قطب حاجبيه وأجال بنظره فيه من قدميه إلى رأسه استخفافاً، ثم أشاح بوجهه منصرفاً حيث تسير ثيرانه.

اشتد غضب جوهر وكان أمله الواهي وخوفه من البندقية قد صرفه

عن إحداث أي أثر من آثار الغضب، سيما أنه عُرف بالمكر والجلد والمراهنة حتى يصل إلى مبتغاه، ولم يكن سلامه إلا لعل الرجل قد استخار أو استشار.

اتجه مغضباً إلى السوق حتى وصل دكان علي فوجده يفتح بابه الخشبي الصغير، وقد رفع صوته بالتهليل والتكبير. وما إن رآه عليّ حتى قال مازحاً:

- خيراً (إن شاء الله) لا يصبّح الغراب بخير..

تظاهر جوهر بالضحك لكن زفرة كائدة ندّت من صدره ثم سحب كيساً فجلس عليه..

أخذ علي كيساً آخر فجلس بجانبه بعد أن نشر بعض بضاعته ثم قال له:

- بالتأكيد فأنت لم تأت الآن إلا ومعك خبر مهم يا جوهر .. فما هو؟

ضيّق جوهر عينيه المتورمتين وقال متصنعاً الدعابة:

- المشكلة أنني لا أجد من أشكو له همي إلا أنت، فدائماً أجد عندك الحلول الشريرة.

ضحك علي وقال:

- قل ولا تطل. ما الذي عندك يا عبد؟

- أتيت مباركاً البارحة فخطبت منه ابنته سارة فغضب مني بل طردني أنا وزايد، ومررت به الآن فسلمت عليه فلم يردّ السلام بل نظر إليّ وعيناه تتطايران شرراً.

كان عليّ هو الذي شجع جوهراً على خطبة سارة مع علمه أن مباركاً سيرفض هذه الخطبة، لكنه كان يخطط على أمر ما.

قال عليّ:

- أنا كنت متوقعاً ذلك.

- متوقع؟!. متوقع ماذا؟ ألست الذي أشرت علي بذلك؟!. ألم يكن هو جزاراً مثلي؟ ألأنه أبيض البشرة؟! إن لون البشرة ليس مشكلة بيننا..

- يا أخي.... أولاً كيف يتزوج القرد العجوز غزالاً، ثم إن مباركاً يتصرف وكأنه قبيلي، وصدقني أن فيه عرق قبيلي.

ضحك جوهر ثم قال:

- قبيلي ! الله يرحم !.. كلنا في الهوى سوى. المهم ما الذي تشير به عليّ؟

كانت هواية عليّ المفضلة إبداء المشورة للمقربين، لكنه يقدمها

ليستمتع بأحداثها ونتائجها الساخنة، فهو على المفهوم العام فتّان، وله مآرب أخرى.

قال علي بلهجة الناصح:

- أقول لك نصيحة إذا اتبعتها سيحصل لك ما تريد: أنت تطالبه ديناً والرجل ليس من أهل المعروف بل هو ناكر للجميل، ولو فعلت لغيره مثل ما فعلت له لأعطاك أغلى ما عنده، ونحن نعلم أنه لا يملك مالاً كافياً ليسدد دينك الذي عليه، لذا فإن رأيي أن تشتكيه عند الأمير لعله يخضع لطلبك حينما لا يجد ما يسدد دينك..

قال هذا الكلام وهو يعلم يقيناً أن مباركاً سوف لن يخضع لابتزاز جوهر، لكنه على - الأقل - سيحقق هو مبتغاه.

*****

في صباح يوم الخميس وفي أوج نشاط السوق وبينما كان الأمير مشيط وابنه عليّ جالسين في دار الإمارة إذ أقبل جوهر إليهما، ورغم ما رآه من هيبة الأمير وشيوخ القبائل الذين جلسوا حوله، وما رآه من كثرة العبيد وقد لبسوا أسلحتهم واقفين قرب الباب إلا أنه تشجع عندما سمع صوت الأمير وهو يناقش الناس الشاكين ويحوّل شكواهم بحكمة أو يبت فيها.. تقدم إلى الأمير وقال بصوت جهوري بعد أن استجمع قواه وسلم على الأمير ثم قال:

- يا طويل العمر .. هناك رجل أخذ حقي وعطّلني اليوم من عملي.. أطلبه ديناً وما ردّه علي، فأريد أن تحبسه حتى يقضيني إياه..

نظر إليه الأمير مبتسماً بهيبة، وقال يمازحه:

- ما هذا يا جوهر؟ اليوم سوق وكان الأفضل أن تجزر وتحصّل خيراً.. أما دينك فانه سيأتيك، ولو أتيتنا هناك في القصر .. كان أبرك لك.. كم تطلبه؟

- مائة ريال..

- مائة ريال؟ كم مضى عليها عنده؟

- شهر تقريباً.

- ماذا؟ شهر فقط؟! وتطلبها الآن؟!.

- نعم يا طويل العمر، هذه سلفة، وموعدها قد حان، والشرط عليه أني إذا طلبتها يعطيني إياها.

- من هو؟

- مبارك بن حزام.. الجزار يا طويل العمر.

- لماذا استدان هذا المبلغ كله منك يا جوهر؟

- اشترى بها بيتاً من الشيخ منصور.

- حسناً .. لماذا لم تمهله؟ شهر قليل جداً لرد مثل هذا المبلغ ّ ّ، وهذا جارك في الدكان، والقرض حسن وللصبر عليه أجر عظيم.

أحرج جوهر ولكنه كان شديد الغضب من مبارك، وقد جاء إلى الأمير وهو محشو غيضاً على مبارك، الذي أهانه وحطم أماني استمرت شهراً كانت أعذب الأماني عاشها في حياته.

فأراد أن يحشو الأمير غيضاً على مبارك مثل الذي يصطك به صدره، لكن ذلك في حق الأمير محال، فهو معروف بالحلم، وإعمال الصلح بين المتخاصمين بكل صبر وحكمة. فقال بصوت خفيض:

- أيها الأمير: إن مباركاً لئيم، ولا يستحق أن يعمل فيه معروف.

ظهر الغضب على وجه الأمير، فنظر إلى جوهر بقسوة ثم التفت إلى أحد عبيده وقال:

- اذهب مع جوهر إلى مبارك بن حزام وأصلح بينهما إن استطعت، وإن اعترف مبارك بمال جوهر ولم يرضيا بالصلح فمره أن يرده خلال أسبوع، فان أنكر الدين أو رفض القضاء فاجلبه إلينا.

لم يكن هذا الأمر ليشفي صدر جوهر الذي بلغ به الحنق مبلغه، لأنه توقع أمراً أشد على مبارك، فأراد أن يشرح للأمير ما يريد فنظر فيه

الأمير بعينين مغضبتين، وكأنها تعني أنه لا يمكن أن يأمر إلا بهذا، فالرجل لا بد أن يعطى مهلة لتوفير المال، بعد أن يتم التحقق من صحة كلامه.

خرج رسول الأمير مع جوهر فوجدا مباركاً أمام لحمه في عريشه في السوق، وهو يبيع على الناس، فلمار رأى رسول الأمير رحب به، وأصغى لما قاله الرسول على لسان الأمير، حتى إذا فرغ، هز رأسه، وقال بابتسامة مريرة:

- سلّم لي على الأمير وقل له: سمعاً وطاعة ولن يكون إلا ما يرضيه إن شاء الله.

فقال الرسول:

- المهم أن تصلحوا والأمير ما يرضيه إلا إذا صلحتم..

فقال مبارك:

- خيراً سأرد له دينه قريباً إن شاء الله.

ثم التفت إلى جوهر وقال بصوت أجش وعينين مغضبتين:

- أما أنت أيها الشهم، فتعال بعد أسبوع، أكون قد جمعت لك نقودك.

فقال جوهر لمبارك وهو يقترب من مولى الأمير خوفاً من بطش

مبارك:

- إذا كنت تريد أن أشتري البيت فأنا على استعداد.

نظر مبارك إلى جوهر بعين احتقار، ثم وجه نظره إلى رسول الأمير وقال له:

- أرجو أن تقبل الدعوة لتناول الغداء عندي؟

رد المولى شاكراً:

- كثّر الله خيرك ليس لدي وقت.

فانصرف مبارك إلى لحمه يقطعه وانصرف العبد إلى سيده.

*****

اجتمع جماعة الشيخ منصور تلك الليلة في بيته للعشاء، وقد كانت عادة أهل القرية في عيد الأضحى كبقية أهل تلك الديار أن يجففوا لحوم الأضاحي على حبال في الغرف التي لا يستخدمونها بعد أن يقطعونها شرائح ويسلطون عليها الملح يمتص الماء منها. وفي كل ليلة يأتي الرجال والنساء إلى بيت أحدهم فيصنع لهم طعاماً غالبه من عصيد البر أو الذرة المخلوطة بالشعير والمرق.

وأثناء حديث القوم قال الشيخ مخاطباً مبارك:

- رأيت أحد عبيد الأمير مع جوهر عندك في السوق اليوم، (عسى ما شر) ؟

- والله يا طويل العمر. عاد الكلب إلى ما ولغ .. اشتكاني جوهر يريد دينه الذي عندي.

- أعوذ بالله.. لم تمض مدة طويلة على دينه.. ما الذي حدا به إلى هذا الفعل.

- النذالة أطال الله في عمرك..

جعل الشيخ يهز برأسه وهو يقول:

- الصداقة التي تبنى على المنفعة لا تطول يا بنيى .. ما الذي ستفعله؟ هل ستدفع له المبلغ؟

زفر مبارك زفرة خفيضة حاول أن يكتمها عن الشيخ وقال:

- ما عندي -والله - ما أعطيه. ولو كان عندي ما صبرت عليه.

قال الشيخ منصور قد على وجهه ابتسامة السماحة والكرم:

- لا تحمل همّاً يا أبا سارة.. لا زالت أكثر نقودك موجودة عندي، تعال غداً وخذ منها ما تحتاجه.

انفرجت أسارير مبارك، وغصته العبرة فرحاً بهذا الفرج الذي لم يتوقعه بهذه السرعة، لكن جاره منذ عرفه لم يخيّب ظنه. فقال:

- أطال الله بقاءك وحفظك لنا ذخراً، لقد غمرتني بفضلك كثيراً حتى لم أستطع أن أوفيك ولو بمجرد الشكر.

ضحك الشيخ وقال:

- أنت يا مبارك جاري والجار لجاره.

*****

في اليوم التالي وبعد صلاة الجمعة أقبل علي التاجر يوسع في التبسم لمبارك ثم قال له من دون مقدمات:

- نريد أن نتناول القهوة عندك يا أبا سارة.

- مرحباً .. تفضل .. الساعة المباركة..

دخل علي بيت مبارك وهو يتلفت يمنه ويسره ويضع يده على الجدار وهو يرقى السلم، لم تنقص مباركاً النباهة لمعرفة أسلوب علي وأمثاله، لكنه لم يعلّق على حركاته التي تثير التساؤل بل آثر أن يترك الفرصة لعليّ كي يبدأ بالحديث.

وما إن جلسا وأخذا في تناول القهوة حتى دار الحديث بينهما

استطاع خلاله علي أن يُفهم مبارك أنه يريد أن ينقذه من ورطته مع جوهر الذي علم أنه اشتكاه بالأمس، لذلك فهو مستعدٌّ لشراء البيت إذا عزم مبارك على ذلك وليس لديه ما يمنع بقاء أسرته في البيت ولو لسنين طويلة..

ضحك مبارك وقال:

- سبقكم صاحب الفضائل.. والخير والبركة.. لن أبيع البيت وسوف ادفع لجوهر غداً ماله.

تجهم وجه علي عندما تداعت أمام ناظريه أمان كان يبنيها لكنه أبدى اعتذاراً وخجلاً ثم غادر إلى غير رجعه..

*****

لم يؤثّر فوات شراء البيت على السيّد علي كثيراً، فقد أمر أم حمدان أن تواصل مسعاها في طلب يد أم عبد الوهاب التي أشعلت بطوال الانتظار شوقه إلى الزواج بها.

جاءت أم حمدان إلى أم عبد الوهاب في بيتها، فلما وصلت إلى الباب قابلها عبد الوهاب وهي داخله فقطب وجهه وقال بصوت مسموع:

- جاء غراب البين.

ثم خرج مسرعاً.

كان يعرف أنها مرسال الحب، وأنها التي ستوفق بين أمه وخاطبها ولكن ما الحيلة؟

تبسمت العجوز من كلامه وواصلت مسيرها ترفع صوتها بالدعاء بالعون والعافية وهي تنزع أقدامها نزعاً راقية السلم الذي عادة ما تكره رقيه.. سمعت أم عبد الوهاب أنينها وتوجعها، فانقبض صدرها ولكنها نزلت تستقبلها في وسط السلم، ورحبت بها وأخذت بيدها، والعجوز لا زالت مبتسمة بل كتمت ضحكة خرج فحيحها من انفها فالتفتت إليها أم عبد الوهاب، فقالت أم حمدان موضحة سبب الضحكة لها:

- لو سمعتي ما قاله عبد الوهاب قبل قليل حينما راني وقال..

ودهاء سكتت فجأة ثم ضحكت فقد خشيت أن تخبر أمه بما قاله فيؤثر ذلك على قرارها لذلك استدركت قائلة:

- شباب .. أصلحه الله.

قالت أمه مستوضحه:

- ماذا قال يا أم حمدان، عساه لم يقل أدبه عليك.

ارتفعت ضحكة من أم حمدان وقالت:

- قال لي وهو يمازحني: ابحثي لي عن مزيونة يا أم حمدان.

ضحكت أمه، وهيأت الفراش لضيفتها ثم انصرفت لإعداد القهوة. لكن أم حمدان - كعادتها - لا تحب القهوة لما تسببه لها من آلام في معدتها .. فدعت أم عبد الوهاب لتجلس أمامها ثم سألتها ممهدة لها أطر متتابعة:

- هاه يا أم عبد الوهاب ما هي أخبار الزواج .. إن شاء الله موافقة.. اعتقد انك عاقلة وتعرفين مصلحتك..

كانت أم عبد الوهاب قد شعرت بما يعانيه ابنها من هذا الموضوع، وما سوف يكون مصيره، بعد الزواج، وخاصة أن الزواج ليس إلا من رجل لا يفخر به عند الناس.. لذلك كانت قد أخذت قرارها مسبقاً بعدم الزواج من هذا الرجل ولا تدري عن شعورها لو جاء من هو أكفأ منه. فقالت لها:

- إني أعتذر يا أم حمدان فقد استخرت الله. والزواج قسمه ونصيب وليس لعلي عندنا نصيب.

غضبت أم حمدان على أم عبدالوهاب، فأخذت تلومها على عدم الزواج والعمر يتقدم بها، وتفويتها زوج غني كعلي، وغير ذلك لكن أم عبدالوهاب عرفت سبب غضبتها العارمة، فقامت من حينها وفي يدها ريالات فضية أطفأت بها نار غضب العجوز..

*****

7

جاءت الأخبار أن جيش محمد علي قد أقبل من الطائف زاحفاً نحو عسير ليحطم أميرها الذي رجع لتوه من (أبو عريش) بعد حصار دام حوالي شهر ولم يسفر عن شيء، لقد كان ذلك الحصار الفاشل عذر القوي على الضعيف ومن أجله أيضا ستكون تصفية حسابات واستغلال مواقف.

لم يكن الناس قد أفاقوا من حملات أذاقتهم المر وأكلت الأخضر واليابس، ورغم أن الأمير من قبيلة عسير وعاصمته هناك بعيداً عن مدينة خميس مشيط إلا أن قدر هذه البلدة أن تكون ميداناً للمعارك الشرسة بل الخطوط الأمامية لأمارة عسير منذ قيامها، وليس لقبيلة شهران في - معظمها - إلا أن تدفع ثمن هذا الموقع الاستراتيجي الذي جعله الله أيضاً من أسهل وأخصب الأراضي في المنطقة وأغزرها ماء.

الشيوخ وحدهم أهل القرار الذي لا بد أن يتحملوا عواقبه، فقد شدوا من أزر أميرهم الشيخ مشيط بن سالم الذي أكد أنه سوف يبايع الأمير الجديد عائض بن مرعي أميراً على البلاد بعد سلفه علي بن مجثل، ولا بد أن يتحمل مع قومه تبعات هذا الموقف.

ودارت الأخبار تصنعها الإشاعات بوفود تتبعها وفود لطرح اتفاقيات سلام لا استسلام، ولكن الجيش الرهيب لا يريدها إلا حرباً شعواء.

أخذ الحماس يلهب قلوب شباب القبيلة، فكانوا لا يملون من استعراض شجاعتهم أمام بعضهم البعض وحبهم لملاقاة العدو الذي سبق وأن أذاق آباءهم مرارة الظلم والقهر، رغم الانتصارات التي كانوا يحرزونها، وكانوا دائماً ما يذكرون شيوخهم بأنهم أقدر على، مقارعة الأبطال، وصد الأعداء، وإلحاق الهزيمة النكراء بجيوش محمد علي وغيره..

أما الشيوخ فكانوا يردون على حماسة الشباب بدعاء الله عز وجل أن يجنبهم همجية جيوش محمد علي وأن تحرز وسائل الصلح نجاحاً يحفظ عليهم أرواحهم وأموالهم..

لكن الأخبار القادمة من الشمال تنبئ أن الجيش الغازي المكون من حوالي ثلاثة عشر ألفاً وأربعمائة مقاتل وصل إلى (بيشة) وتعداها جنوباً يزحف بكبرياء قادته وبربرية جنوده نحو ديارهم بقيادة احمد باشا ابن أخت محمد علي باشا حاكم مصر ومعه فيه الشريف محمد بن عون الذي طرد من عسير بعد أن ثار عليه سعيد بن مسلط ولم يجعله يهنأ طويلاً بالأمارة على عسير التي تولى عليها بأمر من محمد علي باشا في غزوته الأولى.

*****

رغم جمال اليوم وطلوع الشمس الجميل من مشرقها يزفها رباب من الغيوم إلى كبد السماء، إلا أن الزهور تفتحت باهتة في أعين النساء اللائي يراقبن أزواجهن وهم يجتهدون في صنع الرصاص على شكل اسطوانات صغيرة على قدر فوهات بنادقهم، وقد أخذ العبوس يغلب على صفحات الوجوه البائسة.. إنها الحرب اللعينة التي ستأتي - لا محالة - فتتخطف المنايا أرواحا بريئة وانفساً مغلوباً على أمرها.

أخذت الاستعدادات تزداد، وجاءت الحشود المجندة من جبل عسير وقحطان وشهران فامتلأت ساحات السوق وغصت البيوت بالناس، وكان لزاماً على النساء والأطفال أن يفسحوا المكان لرجال وهبوا أنفسهم للذود عن بلادهم.

وحتى تبقى البيوت للمقاتلين، ولكيلا يتعرض النساء والأطفال لهمجية الغزاة، فقد جاء عزم الرجال على إجلائهم إلى أماكن آمنة في منأى عن أيدي الجنود، وبدأ بكاء الأطفال وبعض النساء الضعاف يختلط بخوار البقر وثغاء الشياه، ليتجه كل فريق إلى مكان يجد فيه الأمان لأهله وحلاله.

أما أسرة ثابت فقد كانت وجهتها شرقاً إلى قرى (تندحة) حيث يقطن أخواله وتندحة في العادة لا تصلها شرارات الحرب القادمة من وادي شهران أو جبل عسير إلا ما خصص لها، كما رافقهم إليها أسرة جارهم مبارك، وأم عبدالوهاب وما معها من أغنام وأبقار، فأخواله العسيريون يترقبون سخط الجيش القادم، ولما يعانونه من اضطرابات

القبائل العسيرية التي بدأت تتصدع حول الأمير الجديد.

أخذ الأصدقاء الثلاثة، ثابت وسعيد وعبدالوهاب، يتنادون في العرصة وهم على صهوات جيادهم، وقد انتصبت ظهورهم الشابة، وشمروا عن سواعدهم وربطوا أطراف (ذواليق) أكمامهم الواسعة إلى ظهورهم، وأخذوا يجمعون البهائم في مكان واحد، أما النساء فامتطين أظهر الحمير وأسنمة الجمال، وارتفع صهيل الخيل التي امتطى الشجعان ظهورها وكان بينهم الشيخ منصور الذي قدم لجاره مبارك فرساً عربية أصيلة.

أحاط الرجال بهذه الكوكبة وقد اجتمع إليها عدد من الأسر التي تريد أن تلجأ إلى (تندحة) وما حولها، بينما أخذت أسر أخرى تتجه إلى القرى الجنوبية وإلى (أحد رفيدة) وبقية بلاد قحطان الحليفة تحت حراسة فرسانها الشجعان. وشقت القافلة (وادي بيشة) الذي لا زالت مياه السيول القديمة تختبئ تحت طبقة رقيقة من الرمل مما أبطأ من سير البهائم.

كانت شمس الصباح تكحل أعين الخيل وتلجئ الفرسان إلى وضع أكفهم فوق حواجبهم، فشمس الصيف شديدة السطوع، وهي في صباحها لا بد أن تكون أمامهم وهم متجهون شرقاً نحو قرى (تندحة) التي تقع على واد باسمها والذي يعتبر من أجمل أودية الجزيرة العربية، وكان بين الراكبين فتاة غيدا تأنف من ركوب الحمير فآثرت السير على الأقدام مع صويحباتها اللائي لا يملكن ما يركبن عليه، لكنهن انشغلن بسوق الأغنام

والأبقار، كانت عينا هذه الفتاه لا تفارق خيال الدهماء التي انتصب ظهر خيالها على السرج وكأنه الرمح، انه ثابت الذي ما إن يصبح بالقوم حتى يخفق قلبها لسماعه وما إن يرتد بصره إلى جبينها حتى تنكسر عيناها إلى أغنامها.

تقدم ثابت بفرسه فجعلت تنظر إليه بقلب مشوق ولكنها تذكرت ويلات الحرب التي سيرجع إليها فخفق قلبها فرقاً عليه، إنه فارس شجاع وسوف لن يتأخر في مقارعة الأبطال.

واختلجت المخاوف في قلبها وجعلت تعظم حتى خيّل إليها أنه مقتول أمامها، فازداد خفقان قلبها ولم تتمالك نفسها حتى ابتعدت عن البنات قليلاً ثم أطلقت العنان لعينيها التي انهمرت دموعاً كالجمر حتى اشتد احمرار أنفها الجميل وخديها الموردين فأخذت تغطي وجهها ممن حولها لكن الكثير أمثالها يبكون ليس على معشوق ولكن خوفاً على والد أو قريب..

لم يك ثابت ممن يخشى الحرب، فقد كان يتمنى أن يخوض شيئاً منها ليثبت لأبيه وكل أهل قريته أنه ابن شيخهم الشجاع الذي لن يتوانى في تقديم نفسه فداء لهم.

وأطلت بساتين وقصور (تندحة) الجميلة من بعيد فزاد الرجال بهجة لقربهم من الأمان فلم يعترض طريقهم أحد من البدو أو قطاع الطريق، الذين ينشطون في مثل هذه الظروف العصيبة، أما النساء

فزادوا انقباضاً وخوفاً على رجالهم الذين لا بد وان ينكفئوا راجعين إلى حصونهم، كما أنهم سيكونون ضيوفاً ثقالا على أناس لئن فرحوا بالضيف فلا بد وان يتحملوا الضيق في البيوت وخفض في المعاش.

وصلت القافلة وتفرقت الأسر على المنازل التي خرج أهلها رافعين الصوت مهللين مرحبين قاطعين العهد على أنفسهم بحسن الضيافة والنصرة.

هبط منصور وأسرته ومعهم مبارك وعبد الوهاب وأمه على أصهار منصور ضيوفاً، فاستقبلوهم بأحر ما يستقبل به الضيف اللاجئ، وأخذ الشيخ الكبير أبو زوجة منصور يرفع الصوت بالترحيب ويكرره مبدياً انفعالاً شديداً يعكس الشعور الغاضب من السبب الذي أجبر هؤلاء الكرام على اللجوء وطلب الأمان في غير منازلهم، مما أثار شجون السامعين فبكى أكثرهم.

وزعت البهائم على الزرائب ودخل النساء وبما خف معهم من ملابس وفرش إلى القصور الطويلة والتصق كل طفل بتربه وكل فتاة أو امرأة بمن مثلها ما بين مرحب وشاكر وباكي..

كان الوقت ظهراً ولم يبق وقت لذبح الذبائح وإكرام الضيوف منها، فالرجال على عجل ليعودوا إلى قومهم، لكنهم لم يعدموا من غداء - على عجل - من البر والسمن.

ولما تجهز الرجال للانصراف سمع ثابت صوت أخته بالأسفل تناديه وقد خنقتها العبرات، فنزل فوجد أمه وأخته وقد احمرت أعينهما من الدمع، فلما رآهما سرت عبرة خانقة إلى حلقة فضم أمه إلى صدره وطيب خاطرها بكلمات، ولما أطلقها هرولت إلى الغرفة المجاورة، فضم أخته إلى صدره وأخذ يخفف ما بها من جزع، فقالت وهي لا تكاد تبين:

- سارة تريد أن تقول لك: احرص على نفسك واعلم بأننا من أشرف القبائل، ولسنا جزارين ولكن أبي هارب من دم أصابه ثأراً .. وستتضح الأمور قريباً..

ارتبك عند سماع ذلك الخبر، وارتجفت أطرافه من مفاجأته، وسرى شيء إلى قمقم رأسه، فلم يعلم أنه سمع ألذ منه منذ أن كان طفلاً فأمسك كتفيها برفق وهزه ثم قال:

- لا أعهدك إلا صادقة يا أختي العزيزة، هل ما تقولينه صحيحاً؟!

- نعم والله..

فأخذ يهز كتفها برفق ويقول:

- ولكن كيف؟

- هذه قصة لا أعرفها بالتفصيل وقد أخذت علي عهودا ومواثيق أن لا أبوح بهذا السر، لأن أباها عرضة للخطر..

غمغم ثم قال:

- نعم .. نعم يا أختي ولكن هل لي أن أراها ولو من بعيد؟ لقد تفطر قلبي وأنا أنظر إليها ونحن قادمون، إنها كانت تبكي.. إنني لم أتحمل بكاءها..

قالت أخته بصوت مخنوق وهي تداري انفعالها بابتسامة باهته:

- الله.. الله.. هل هي التي كانت تبكي لوحدها؟ أم....

ضحك بصوت خفيض، ثم قال وزفراته تسبق كلماته:

- أعرف يا أخيتي أنكم كلكم كنتم تبكون، ولكن لا تخفن الله معنا؟

غمغمت وأرادت أن تطلق كلمة تمازح أخيها إلا أن العبرة تملكت حلقها فخنقتها.. فصمتت هنيهة لعل العبرة تذوب في فمها .. وتصبرت ثم تراجعت وأخذت بيد أخيها إلى المنعطف الذي يلي الباب وهي تنظر إلى الدرج وكأنها خائفة أن لا ينزل أحد من الأعلى تخشاه، وان كان النساء من أهل البيت يمرون عليهما ذهاباً وإياباً دون أن يعرن لهما اهتماما.

وقبل أن تتكلم بادرها بصوت هادئ:

- نورة .. ما رأيك لو صنعت في أخيك معروفاً؟

زاد اهتمامها وقالت:

- أبشر.. مرني.

- أريد أن أراها.. أريد أن أسمع صوتها.. أريد أن أرى بسمتها بعد هذا الخبر المفرح الذي زففتيه إلي.

- ولكن .. ولكن كيف؟ أين؟

- بأي طريقة شريفة وفي أي مكان.. أقسم لك يا أختي أنني لن أنسى لك هذه الخدمة.

ـ زفرت نورة زفرة حرّاً ثم نظرت إلى عيني أخيها التي بدأتا تلمعان بعد ذبول ثم قالت:

- خدمة؟! يا ليتني أفتديك بروحي.. ليتنا نحن النساء الذين نقاتل مكانكم..

- أعرف شدة حبك لي ولكن لن أعفيك من طلبي هذا.

- حسناً.. أخرج أنت إلى الخلاء وسوف أنظر إلى ما سأفعل.. لا.. اسمع .. هل تعرف زرع خالي المسمى (الركيب)؟

- نعم.

- إنه مزروع بالذرة ولا يرى من بداخله، أدخل إلى وسطه من جهة الوادي وسوف أرسلها في أثرك.

- ولكنني لم أتعود ذلك.. أخشى أن يراني أحد فيظن بي سوءاً.

- تصرف..

ثم أزاحته من طريقها وقرصته في عضده وهي تبتسم وتقول:

- يا الله.. انصرف..

كانت آثار المفاجأة لا زالت مشوشة عليه فكره، نعم.. لقد سمعها أول مرة قابلها وهي تقول: نحن لسنا بجزارين ولم يفهم معناها..

فكر في الموعد الذي ضربته أخته لهما فاشتد خفقان قلبه فرحاً شديداً باللقاء وخوفاً شديداً من أن يساء له أو لها حينما يريان في مكان معزول بمفردهما.

انطلق إلى الوادي بين زروع الذرة التي غطت جنبات الوادي مشمراً عن ساعديه وكأنه مستعد للوضوء في إحدى (الفضايا) التي حفرت في الوادي. وما إن هبط في الوادي حتى التصق بإحدى أشجار الأثل التي تحيط بجنبات الوادي، ثم صعد إلى زرع خاله وقد ارتجفت أطرافه خجلاً ووجلاً، ثم جعل يسير متسللاً في الساقية إلى وسط زرع الذرة الكثيف، حتى إذا توسط الزرع اتخذ الساقية الكبرى مجلساً، ولكي يسيطر اضطرابه تناول شيئاً من ثمر اللوبيا التي تسلقت وتشابكت نباتاتها على قصب الذرة، وأخذ يأكلها وعيناه تطاردان الضوء بين القصب يترقب مجيء حبيب طالما أضناه شوقه وأخافه قربه وآلمه اليأس منه.. منسياً إياه ذلك

الشوق الخوف الذي سيطر على أركانه أول ما جاء وجلس.

وما هي إلا دقائق كانت أبطأ دقائق عرفها حتى هفت حمرة بين القصب، فصوب بصره نحوها ثم اختفت، لكن حفيف صوت الورق أكد قرب زائر لا يدري هل هو صاحبه أم ضيف ثقيل سيفضحه؟ وما هي إلا لحظات حتى قرب القادم بل القادمان واتضحت ملامحهما فإذا هما سارة وأخته نورة، فاضطرب قلبه وارتفع الدم فجأة إلى رأسه دفعة واحدة حتى ظن أن غيبوبة ستغلبه، وظن أنه في حلم لا حقيقة فتحرك في قعدته وانتبه على سلامها المرتجف الذي لم يكد يسمعه، فرد السلام بوشوشة خائف ثم قال:

- مرحباً يا سارة.. كادت مفاصلي تذوب من الخوف.

تشجعت ونظرت إليه بعينين خادرتين ثم قالت:

- أنت رجل شجاع لا تخاف.. أنا لا أتمالك نفسي من الخوف خشية أن يراني أحد.

تظاهر بالشجاعة لعلها تهدأ أو يستطيع أن يقف أمامها لحظات طالما انتظرها، ثم نظر إلى أخته المطأطئة رأسها وقد احمر وجهها خجلاً وحرجاً من الموقف، ولكنها لمحت أخاها وهو ينظر إليها، فقالت بصوت مهتز:

- لقد رفضت سارة المجيء إلا وأنا معها.

تبسم ثابت وقال:

- معها حق وإنني معجب بها، ولكن هلاّ ابتعدت قليلاً، أريد أن أقول لها سراً.

همّت نورة أن تنصرف لكن قبضة سارة أحكمت على وسط ثوبها وأمسكته بقوة.

فهم ثابت بأنها لن تسمح بانفراده بها، فقال لنورة يمازحها:

- لا بأس اجلسي يا نورة ولكن سدّي أذنيك واخرسي.

ضحكت نورة بصوت خافت خجول، بينما فرت سارة شفتيها العذبتين بابتسامة خجلا كادت تشق قلبه.

ثم أشار لهما بالجلوس، فجلستا ولكن كأن لجلوس سارة تهصر أنثوي لم ير مثله، فعودها الريان لا ينثني إلا بأناقة لم يكن يلاحظها في أحد من قبل.

وبعد أن جلست القرفصاء وكأنها متحفزة، نظر إليها ثابت وقال لها:

- سارة .. أنت تعرفين أن هذه اللحظات بالنسبة لي هي أغلى لحظات عمري.

ثم سكت ونظر إليها وكأنه ينتظر منها كلاما يماثله. فهزت رأسها

وقالت بصوت لا يكاد يسمعه:

- أكيد وخاصة بعدما عرفت أنني لست بنت جزار.

قالتها ثم بدا عليها الفزع فنظرت يمنة ويسرة وقد علتها مسحة من الخوف. فقال:

- ماذا؟!. لا تظلميني يا العزيزة، والله لو كنت ما كنت فإن قلبي قد اختارك، ووالله إن الفوارق القبلية اللعينة لن تثنيني عن حبك.

أخذ الخجل يثير الدم على صفحة وجهها الوردي، لكنها أظهرت ابتسامة محرجة وقالت:

- وما الفائدة من حب لا نهاية له إلا الألم والسهر والمرض؟!

فرد وقد استوى في جلسته:

- ماذا؟ نهايته الزواج (إن شاء الله) .. ما إن أعود من الحرب حتى أخطبك من أبيك.

اتسعت حدقتاها ونظرت إليه بنظرات فيها قسوة، ثم قالت:

- ماذا؟ تخطبني من أبي؟! هكذا؟! ألم تقل لك نورة أن أبي في خطر إذا علم أحد بشأنه.

- كيف؟

- لو اعترف أبي بأنه ليس جزاراً فإن أحداً لن يصدقه حتى ينتسب إلى أهله فإذا انتسب وعُرف جاء الدلالون بأعدائه فقتلوه.

- ولكن..

فقاطعته برفق وقالت:

ـولكن ستخطبني دون أن تعلن أن أبي ليس جزاراً. أليس كذلك؟ إن أباك وجماعتك لن يرضوا أبداً، فأنت قبيلي بل شيخ قومك وهذا محال.

لم تكد تنهي كلامها حتى غصتها العبرة وأطلقت من عينيها المنتكستين دمعات حرا.

كانت كلماتها سهام اخترقت قلبه، فقال بصوت مخنوق:

- لا عليك يا عزيزتي، لا تضيق إلا وتفرج وسأفديك أنت وأباك بروحي، وسنفعل ما بوسعنا لحل هذه المشكلة .. المهم أنني عرفت مشاعرك نحوي، وحتى لو كان أبوك جزاراً فغيري من مشايخ القبائل تزوجوا من صناع. وعلى كل فأنا لا أعترف بهذه الخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان.

سكت فجأة على نشيجها الذي حاولت أن تخفيه فقال بصوت مخنوق:

- سارة.. لا تبكين.. ستفرج.. أقسم لك أن بعد الضيق فرج؟

قالت وبكاؤها يزداد وبصوت خفيض:

- إنني.. أبكي خوفاً عليكم من هذه الحرب الملعونة.

- لا تخافي.. ليت هناك حرب قد قامت لتجمعني بك. آه يا سارة كم ليلة بتها وأنا أتقلب ولم أذق طعماً للنوم..

ثم شعر أنه قد زاد في عيار الخطاب الغزلي الذي لم يتعوده ولم تتعوده سارة، وأن الموقف - أدبياً - لا يسمح بهذه العبارات احتراماً لها أولاً وحياءً من أخته ثانياً، فتنحنح ونظر ببسمة خجلة إلى أخته، لكن دمعة أهاجت مشاعر سارة طفرت من عينيها فظهر على حديثها آثار العبرات وهي تقول:

- الله .. الله.. حافظ على نفسك وتذكر بأننا ننتظرك على أحر من الجمر..

أخذت العبرات تخنق نورة التي التزمت الصمت، ثم شاركتهما النشيج وهي تحرك رأسها يميناً وشمالاً وإلى الأمام وإلى الخلف تراقب الضوء خشية أن يدخل عليهم متطفل. وبعد فترة صمت قصيرة فرضها موقف اختلط عبرات فرحة اللقاء بحزن الفراق نظر ثابت إلى قمقم رأس سارة المطأطئ وقال:

- لي عندك طلب.

رفعت رأسها تنظر إليه، وقد أسعدها أن يطلب منها هي شخصياً شيئاً ما، وقالت:

- لا تطلب وإنما مُر.

- أن تعطيني شيئاً يلازمني من عندك.. أعطيني ولو قطعة من خمارك..

وبحركة عصبية مرتبكة أخرجت خاتماً كان في يدها وأعطته إياه، ثم تناولت طرف منديلها الذي على رأسها فأمسكته بنابها ثم شقت منه قطعة صغيرة وقالت:

- خذهما ولا يراهما أحد.

فالتقفهما بكفه متعجلاً. لكنه سمع قولها المنخفض الذي لم يكد يفهمه:

- وأنت أعطني قطعة من عمامتك..

- ماذا تريدين بها؟

- أريد أن أصنع بها كما تصنع بقطعة خماري.

ضحكا من حلقين أبحهما البكاء، بينما شاحت نورة بوجهها المحتقن وقد علته بسمة حزينة، شق ثابت قطعة طويلة من عمامته وأعطاها إياها.

تبادلا نظرات وداع كادت تحرق فؤاديهما، ثم قال بهدوء مخاطباً سارة وأخته التي منحها ابتسامة شكر وعرفان:

- ارجعا من حيث جئتما وسأخرج أنا فيما بعد من حيث دخلت.

قالت له سارة بصوت مخنوق:

- استودعك الله الذي لا تضيع ودائعه، نفسك وأبي معك أمانة.

ثم انصرفت تجر قدميها وقد امتزجت مشاعر السرور بالخوف ومشاعر الحب بالرهبة، ومشاعر الجرأة بالحياء، وما إن رأى أن الوقت قد حان حتى خرج إلى الوادي فتوضأ هذه المرة منه حقيقة، ثم انطلق لصلاة العصر في المسجد حيث يجتمع الرجال مستعدين للمغادرة إلى خميس مشيط.

*****

8

انتشرت نيران المقاتلين في ساحات السوق والشوارع والمنازل، تبدد ستر الظلام وتنشر الطمأنينة على الأنفس التي بدأت تلهج بالحوقلة والترجيع، وصار لتأمين المصلين دويّ يرسل السلام على أرجاء الجبال الساكنة والقلوب الخفاقة..

نام الناس وهم يترقبون يوماً جديداً يشددون فيه من تحصيناتهم ويزيدون فيه من صنع قطع الرصاص التعيس الذي لن يستطيع أن يواجه مدافع الباشا وبنادقه (الرشاشة) ويسنون السيوف والرماح والخناجر والسكاكين أيضا.

ولما انبلج الفجر دوّت الدنيا بأصوات المؤذنين عند كل قوم، وما إن انتبهوا حتى بدأت سحب الظلام تنقشع لتبدد زرقة الفجر قادمة من الشرق لتبشر أو تنذر بيوم جديد، ونودي في الشباب فيمن سيأتي بخبر القوم فانبرى لهم ثابت ابن الشيخ منصور وارتكز بجانبه صديقه عبد الوهاب ثم لحق بهما سعيد بن محي البطل.

امتطوا صهوات جيادهم الأصيلة ثم انطلقوا بها نحو الشمال تحت

دعوات الجميع لهم بالتوفيق والسلامة.

اتجهوا أولاً نحو الجنوب الشرقي حتى هبطوا في أسافل وادي (تندحة) حيث غابات من الأثل والطلح ثم ساروا حذاءه محاذرين ومستعدين لطلائع الغزاة حتى وصلوا إلى قرية (المعامل) وكانت الشمس قد ارتفعت ضحى فطرقوا باب صديق للشيخ منصور، يدعى محمد ففتح الباب ورحب بهم كثيراً وأمر بإعداد الفطور لهم، وبعد أن أخذوا مكانهم من المجلس سألوه عن أخبار جيش الباشا. فقال الرجل بعد زفرة حرّا ندت من فؤاده:

- قاتلهم الله، إنهم خليط من ترك ومصريين ومغاربه وبدو، وصلوا إلى أبعد الحدود من الوحشية والهمجية، لقد هرب الناس من أمامهم حينما وصلوا (وادي شهران) وما وجدوا بيتاً إلا نقضوه وأخذوا عيدانه حطباً، ولا تركوا زرعاً إلا حصدوه وأطعموه لبهائمهم، حتى الدلاء والحبال والبكرات أخذوها، وكان وصولهم يوم سوق فأخذوا التمر والزبيب والفاكهة، وغيرها بثمن بخس وبغير ثمن.

قال سعيد بن محي:

- فأين الناس؟ لماذا لم يقفوا عند بيوتهم؟

- يا بني، هؤلاء ليسوا جيشاً، إنهم مرتزقة همج، يستمتعون بالقتل ويعيشون بالسلب لا يحكمهم دين ولا أخلاق، لقد هرب الناس إلى

الجبال ينظرون إلى الجيش بعيون مقهورة.

قال ثابت:

- وهل عرف عددهم؟

فقال الشيخ:

- هناك من ذهب للسوق ليطلع على قوتهم وقدر عددهم بحوالي عشرين ألف رجل.

قال ثابت:

- فأين وصلوا الآن يا عم؟

- قالوا لنا بأنهم على مشارف قرى (الجمفور) .

قال سعيد بن ثابت:

- أسال الله عز وجل أن يصيبهم بحمّاها فهي موبوءة هذه الأيام.

قال الشيخ:

- الله قادر ذلك يا بني .. الله كريم.

قال ثابت:

- سمعنا أنهم يجرون مدافعاً كثيرة فهل رأيتها.. يا عم؟

قال الشيخ:

- أنا لم أرها ولكنهم قالوا مثل ذلك بل قالوا: أنه كان معهم سلاحا يسمونه صواريخاً، ولا أعرف ما هي الصواريخ.. لكنهم تركوها في بيشة.

تنهد ثابت، ثم قال:

- آه.. قاتل الله من اخترع البندق والمدفع، والله لولاهما لما استطاع أي أجنبي أن يجرؤ على غزو بلادنا.

- هذه الدنيا يا بني.

قال ثابت:

- ومتى تظن أنهم سيصلون إلى خميس مشيط؟

- على مسيرهم هذا فإنهم سيصلون بعد غدِ والله أعلم .. ولكن أخبرني.. لقد سمعت أن عائض بن مرعي قد حشد حشوده في خميس مشيط هل هذا صحيح؟

- نعم يا عم .. والله لا ندري عن هذا الأمير الجديد شيء، لكننا أعطيناه عهوداً ومواثيقاً ولن نخذله حين البأس، ولن تقول العرب بأننا نكثنا عهودنا عندما خفنا، وإلا فنقل المعركة إلى بلادنا أولا معناه فقد

العديد من أبطالنا وخراب لبلادنا ومزارعنا وحصوننا.

تنهد الشيخ وقال بصوت حزين:

- هذا قدر الله يا بني .. أخبرني ماذا صنعتم؟

- لقد تجمع الرجال في خميس مشيط، وتحصن أكثرهم في الحصون الستة التي في الأمام وقد تم تحصين الكبير منها ووضعت فيه المضارب وهو الآن مهيأ للمعركة، ولكن تأتينا الأخبار بأنه لا يقف أمام المدافع اللعينة حصن حصين.

- توكل على الله يا بني وسينصركم الله ويخذل المعتدين، لقد سمعت أن صلاتهم قليلة وبعضهم يشرب الغليون ولا يخاف أكثرهم من الله .. وهؤلاء لن ينصرهم الله أبداً.

قال عبد الوهاب:

- يقولون أن معهم نصارى. فهل هذا صحيح؟

- والله لا أدري يا بني، لقد رؤي معهم كثير من الرجال الحمر، ولا ندري من المسلم منهم والنصراني؟ ولكن المتعدي سيكفي به الله .. والآن أين ستذهبون؟

قال ثابت:

- سنتجه إلى قرى (الجنفور) لنطّلع على الجيش من بعد ثم نعود إلى أهلنا ونخبرهم بالخبر.

قال الشيخ:

- لا يا بني أنصحكم أن تأخذوا الخبر منّي وتسرعوا بالخبر من هنا فالقوم لديهم بنادق طويلة المدى ولديهم فرق استطلاعيه على جوانب الجيش وأخشى أن يدركونكم، لقد رأوا مع كل واحد من أصحاب الطرابيش بندقية طويلة ومسدسين ويقال أن هؤلاء مغاربة وهم أقل تسلح من الجيش لذا فعليكم أن تذهبوا من هنا.

قال عبد الوهاب:

- القدر سيأتي يا عم سواء هنا أم في الحصون أو حتى على الفراش، نحن لا نخاف من الموت ولا نخاف إلا على قومنا.

- ولكن الحذر واجب، وقومكم في حاجة إليكم وإلى أخباركم وقد حاول بعض سيئ الحظ مرافقة الحملة لينهب منها أو ينقل أخبارها فقبض عليهم باشا يقال له (عمر أغا) فأطلق سراح واحد من بني منبه وقتل رجل من قبيلة بني واهب ورجل من قبيلة ناهس.

- وكيف عرفت بهذا يا عم؟

- المنبهي موجود هنا عند واحد من الجماعة وهو مكسور.

فرح ثابت بالخبر وقال مستعجلاً:

- هل نستطيع أن نراه؟

- نعم .. ولكن بعد أن تتناولوا طعام الإفطار.

أخذ الشباب يزدردون فطورهم على عجل، وبعد أن فرغوا منه توجهوا جميعاً إلى بيت من الطين مكوّن من طابقين بني على طرف القرية، فاستقبلهم صاحبه البدوي الذي بدا عليه شيء من الخوف والارتباك، لكن الشيخ محمد طمأنه وأكد له أن هؤلاء من أهل خميس مشيط جاءوا يستطلعون خبر الجيش، أخذهم المضيف إلى المجلس الذي يرقد فيه الكسير فلما رآهم فزع لكن ابتسامة الشيخ محمد هدأت من روعه.

كان رجلاً هزيلاً قد شوت الشمس أديم وجهه الذي بدا مستطيلاً خفيف اللحية ضيق العينين لا زال فيها شيء من لمعان أطفأ بعضه ألم الوجع وكسرته رهبة الخوف. سلموا عليه فمد لهم يده وهو على فراشه. كانت قدمه اليمنى مربوطة بأعواد رصدت أفقياً من فخذه إلى كعبه ثم لفت بقطع من الجلد ورديء القماش.

جلسوا فجعل يجيل النظر فيهم ثم أطاله في وجه ثابت ثم قال له:

- هل أنت ابن الشيخ منصور؟

ابتسم له الشاب وقال:

- نعم.

- ونعم الرجل.. إن له عليّ فضل سابق .. إنك تشبه أباك كثيراً يا بني.

قال ثابت:

- الله يديم المعروف يا عم .. كيف ترى نفسك؟

- الحمد لله .. شيء أخف من شيء .. لقد رأيت وحوشاً قذرة، برابرة لا يخافون في الله أحداً.

قال عبد الوهاب:

- ما قصتك يا عم؟

تنهد الرجل وضاقت عيناه وكأنه يتذكر بألم ما مرّ به ثم قال:

- لقد مر هؤلاء البرابرة بوالدي العجوز وهو في خيمته فقتلوه وأخذوا ما عنده، لم يكن لأحد أن يقتل مثله (ثم غصّته العبرة لكنه واصل حديثه) إن هؤلاء ليسوا بمسلمين، كيف يقتل الشيخ والطفل والمرأة؟ ولكن هذا ليس بغريب على جيش يرسلهم محمد علي باشا. حينما رأيت أبي مقتولاً آليت على نفسي أن أنتقم له من زعمائهم فاتبعتهم، ولم أتمكن

من ذلك حتى وصلنا (السليل) فلما رآني فارس منهم يدعونه (عمر أغا) أنكرني فجعل يسألني،ولما علمت انه قاتلي هربت، ولكن فرسه كانت أسبق من قدمي فطرحني ثم سحبني إلى قرب كبار الجيش ثم سألني عن مجيئي فقلت له وقد أيقنت بالموت:

- لقد قتلتم أبي يا برابرة، وأتيت لا ثأر له.

فقال:

- من الذي قتله من الجيش؟

قلت:

- لا أعلم.

- فمن تريد أن تقتل به؟

- أحد كبار الجيش.

فضحك والتفت - معجباً - إلى كبار القوم وقال:

- رجل شجاع وصادق.

ثم التفت إلي وقال:

لشجاعتك وصدقك لن أقتلك ولكن لن أدعك تفكر في قتل أحدنا.

ثم أمسك برأس بندقيته وضرب فخذي بكرسيها فكسرته ثم تركني بعد أن جعل عندي من يراقبني حتى غادر الجيش، فلما بعد القوم وكزني الحارس ولحق بهم. وبقيت ليلتي في (السليل) أسمع عواء الذئاب تقترب مني حتى أنقذني الله بهذا الرجل الشهم صاحب هذه الدار، وهو على ناقته فحملني إلى هنا وجبّرني وأكرمني فجزاه الله خير الجزاء.

قال الثلاثة:

- شفاك الله وعافاك والحمد لله على السلامة.

ثم قال ثابت:

- هل صحيح أن الشريف محمد بن عون معهم؟

- نعم، إنه معهم وهو يطمع في أن يعود للحكم في عسير مرة أخرى.

انتبه الشباب الثلاثة إلى أنهم تأخروا كثيراً عندما سمعوا أذان صلاة الظهر فنهضوا قياماً مستأذنين من صاحب البيت وشاكرين للجميع، لكن صاحب البيت أبلغهم أنه قد ذبح لهم خروفاً وهو يطبخ وسيكون الغداء جاهزاً بعد صلاة الظهر مباشرة.

وبعد أن تناولوا الغداء بعد الصلاة حتى أخذوا بنصيحة الرجال وانكفئوا عائدين من حيث أتوا يسابقون الشمس نحو المغيب.

وما أن احمرّت الشمس حتى استقبلهم الرجال عند الأبواب

يسألونهم عن أخبار الجيش لكنهم يردون عليهم ويقولون: منصورون إن شاء الله منصورون. ثم اتجهوا إلى عِلية القوم الذين كان معهم بالطبع — أبو ثابت، الشيخ منصور فأخبروهم بالخبر.

*****

9

ما أن انبلج الصبح وبدأت أشعته تمزق أوعية الظلام لينذر بقدوم يوم بؤس جديد من أيام صفر من عام 1250هـ- الموافق 21 أغسطس 1834هـ- حتى تحركت الجحافل الغازية متجهة نحو الجنوب حيث تربض مدينة (خميس مشيط) الحالمة، وكانت الشمس بعد شروقها تسابق القوم على عرصات القتال التي لا يجف فيها دم حتى يسيل دم مسلم آخر.

كان عائض بن مرعي قد وصل بقواته التي قدم بها من جبل عسير الليلة الماضية وأخذ في ترتيب الصفوف منذ الصباح الباكر، وأمر أن يبقى عدد من المقاتلين في الحصون لا يغادرونها، بينما يرافقه العدد الآخر من المشاة في الميدان وكان يقدر جيشه بستة آلاف رجل. إلا أنه يفتقر إلى التنظيم الذي يتمتع به الجيش المصري، وإن كانت الطرابيش الحمر تعلو هامات الكثير من رجال الباشا فإن فخامة لباس وخيل الكثيرين من رجال عسير ينم عن رجال لا يقللون من أهمية الظهور بمظاهر أكثر أبهة عند اللقاء.

أرتفع معيار الحماس في رأس ثابت وهو يرى الجيشان وقد أخذ كل

منهما مواقعهما في ساحات القتال فنزل وهو آخذ بيد صاحبه عبدالوهاب وكانت الحماسة تعلو وجهيهما الشابين وذلك لأنهما سيشاركان في معركة حقيقية ستثبت لنفسيهما قبل الناس كيف أنهما مقاتلان أكفاء، وكانا في نفس الوقت يريان وجوه الكبار وقد تغيرت ألونها، وهم يكبرون ويدعون الله عز وجل بالصبر عند اللقاء، والنصر على الأعداء ..

وجد ثابت أباه وهو ينزل من على فرسه ليرقى الحصن ويأمره أن يلحق به لكنه سمعه بنبرة اللائم يقول:

- أراك تبتسم وكأنك منشرح الصدر.

فقال ثابت:

- لست فرحاً لكنني لست خائفاً، والعجيب يا أبي أني أراك ممتقع اللون وأنت معروف بالشجاعة والبأس.

فنظر إليه بتعجب وقال:

- يا بني أنا لا أخاف الموت .. فالموت لا محالة آت، ولكني أرى يوماً مهولاً ستهدر فيه دماء مسلمة ليس لها ذنب، إن الرصاصة أطلقها قد تقتل مسلماً، وإن الرصاصة تنطلق من عندهم ستقتل رجلاً مسلماً منّا، لماذا هذا كله؟ ولكن لا نقول إلا: (إنا لله وإنا إليه راجعون، وحسبنا الله ونعم الوكيل) . خذ بندقيتك والحق بي.

تردد ثابت ثم قال لأبيه:

- أبي. سآتيك (إن شاء الله) أريد أن أرى الأمير، وماذا سيفعل؟

خرج إلى الساحة التي اجتمع فيها الجيش، وقد بدأت الخيل ترفع صهيلها، وترقص متبخترة، تعاند فرسانها، وقد توكر على ظهورها فرسان أشاوس لم ينسوا مع الحرب أبهة المركب وزينة المحارب. اخترق ثابت الصفوف حتى وصل الأمير عائض وهو يتكلم إلى قادته، فوجده شاباً في الثلاثينات من عمره متوسط الطول بدين جداً، له لحية كثة، حواجبه سوداء، عيناه كبيرتان تلمعان باستمرار كأنهما الماستان، يلبس جبة حمراء مخططة وعمامة مزركشة قد عصب بها على رأسه.

*****

مضى على طلوع الشمس ما يقرب من ثلاث ساعات، وقد تمركز الجيش الغازي في مكان استراتيجي من ساحة المعركة، وجعل جنوده ينظرون إلى حدائق مدينة (خميس مشيط) وقصورها بأعين طامعة قد أنهك أصحابها الجوع والفاقة، وفهموا يقيناً أنه لا بد من النصر أو الموت والجوع..

ارتفعت الشمس إلى كبد السماء ولما زالت قليلا ارتفعت أصوات المؤذنين لصلاة الظهر فأخذت صدورهم تهبط وتنزل خوفاً من يوم عبوس.

صلّت الجموع المؤمنة، وارتفعت أيدي المحاصرين، ولهجت ألسنتهم بالدعاء إلى الله عز وجل بدحر المعتدين.

كان الخوف قد رسم شبحه على الوجوه الضامرة، وبدأت غربان البين تحوم في سماء المعركة تنتظر المعرة لتنهش في لحوم الضحايا، وبلغت القلوب الحناجر في ترقب رهيب.

شد قادة عسير من عزائم أقوامهم وقد حشوا بنادقهم التعيسة بالبارود وقطع الرصاص، واستعدوا بمحاقن البارود المليئة. وعلقوا السيوف وأسندوا الرماح على الحيطان وارتص خلف كل فتحة من فتحات المتاريس رجال ينتظرون أدوارهم للرمي ثم العودة لحشو البنادق مرة أخرى.

أما الأمير عائض فقد أخذ يرص الصفوف استعداداً للهجوم على القوم حينما يرى أثر رصاص رماته في رؤوس الأعداء، ليستغل النجاح المخطط له، وهو يبتهل إلى الله ويدعوه أن ينصره.

أقترب الشريف محمد بن عون بمدفعه مع كتيبته من الحصون كثيراً ثم صاح في المدفعية يأمرهم بإطلاق النار، وارتفع دويها الذي يسبق قذائفها، إلى قلوب شدت عزائمها على النصر أو الشهادة، لكن طلقاتها لم تكن لتهدم الحصون المبنية من الطين بل تحدث فجوات فيها ولا تهدم الحيطان كما كان يؤمل الشريف والباشا مما زادهما ضيقا وحرجاً.

زاد حماس المدافعين بزيادة شراسة المهاجمين الذين انتشوا برائحة البارود، وكان لفجوات الدافع التي زاد اتساعها فضل لمروق رصاص المهاجمين إلى أجساد المدافعين، الذين لم تكن بنادقهم أطول بعداً، فالأعداء بعيداً عن مدى تلك الأنابيب متهالكة والبارود الرديء.

وبعد صمود لم يدم طويلاً ازدادت فجوات الحصون، صدر الأمر لأهل القرية بالانسحاب فقد اقترب العدو كثيرا مما سيمكنه من الانقضاض على القرية ويفني من فيها.

تراجع المدافعون بسرعة إلى القرية الأخرى بينما هرب بعضهم بجلده إلى مزارع الذرة والجبال.

رفع الأعداء علم الشريف بركات الأحمر والأبيض على أحد القصور، وسكتت المدفعية، بينما أستمر المقاتلون يصوبون بنادقهم على الحصون التي لجأ إليها المقاتلون بشكل كثيف.

ومع استمرار رماية آلاف المقاتلين على القرية الثانية لم يستطع المدافعون أن يصمدوا أكثر مما صمدوا، فقد كان الهجوم رهيباً أكثر مما يحتمل. كان من بين هؤلاء المدافعين الشيخ منصور وابنه ثابت وصاحبه عبدالوهاب الذين ارتصوا فوق الحصون يرمون مع الآخرين، لكنهم أدركوا استحالة الاستمرار في الدفاع من أماكنهم.

حملوا مع بعض المدافعين قتلاهم وكان عددهم (44) قتيلاً ثم أنزلوهم في (المدافن) - وهو برك تحت الأرض حفرت في الحجر الهش

لخزن الحبوب - خشية أن يمثل بهم الأعداء أو يقطعوا رؤوسهم، ثم امتطوا خيولهم وانطلقوا منسحبين ليلحقوا بجيش الأمير عائض الذي لا زال يتراجع غرباً بمشاته وخيالته، لكن أزيز الرصاص وشدة الرمي نحوهم أجبرتهم إلى أن يلحقوا بالقرية الثالثة والأخيرة والتي استبسلت في الدفاع، فشدوا على خيلهم للهرب والنجاة من رصاص العدو. تأخر مبارك عنهم قليلاً ثم لحق بهم في سرعة متناهية، لكن ما إن مدت فرسه يديها لتقفز حاجز سبقه إليه الرجال حتى قتلت برصاصة من خلفها، فسقط من فوقها على الحاجز الترابي فأدركه بعض جنود المشاة من الغزاة فأسروه وأخذوه إلى خلف الصفوف مكبل اليدين.

حينما وصل الشيخ منصور ومن معه إلى القرية الثالثة، التفت إلى ابنه وصرخ فيه من خلف اللثام:

- أين مبارك يا ثابت؟

فرد عليه وهو يسابق أنفاسه:

- لا أدري ... كان خلفنا ... ولكن عساه واصل هروبه نحو الجنوب.

اشترك الشيخ منصور وابنه ومن معهما من أهل تلك القرية الحصينة ما استطاعوا لكن الشيخ أدرك أن العدو منتشياً بالنصر ولن يتوقف عن اقتحام القرية أيضاً فرفع صوته بالانسحاب إلى الجنوب فلا فائدة من البقاء في هذه الحصون.

أمر الشيخ ابنه وبعض الشباب أن يغطوا انسحابهم، ثم يلحقوا بهم، وبالفعل أفرغ ما لديه هو ورفاقه من البارود في حلوق البنادق تباعا ونجحوا في تغطية الانسحاب، ثم امتطوا جيادهم منسحبين في أثر أبيه ومن معه لكن القدر قد كتب لثابت أن تكبوا فرسه فيطيح، ولم يشعر به أحد من رفاقه.

انطلق بسرعة كبيرة على قدميه وقد فقد بندقيته نحو أقرب حصن في القرية ففتحوا له الباب. وأخذ يدافع معهـم بشراسة عن الحصن الذي بقي يدافع وحيداً، لكن قوة كانت مع شريف يدعى عباس استطاعت أن تجبر هؤلاء المدافعين على الخروج هرباً على أقدامهم وخيلهم، وكانت تلك القرية لا تتمتع كسابقاتها بأماكن كثيرة يمكن الاختباء فيها، فانطلقوا في أماكن أكثرها مكشوفاً للأعداء.

خرج ثابت مع من خرج وأطلق لقدميه العنان حتى هبط الوادي، ثم اتجه يهرول محنى الظهر تكاد يداه تلامسان الأرض شمالاً بين مزارع الذرة المدمرة حتى وازى القرية الثانية التي كان فيها مع أبيه، فلما وصل إلى أقرب حصون القرية إلى الوادي، رأى الطرق الضيقة قد امتلأت بالقتلى وقد اكتست وجوههم بوشاح الفناء، يختلطون بجرحى اخترق أنينهم حجاب قلبه. فزفر زفرة كاد يمج معها فتات كبده، لكنها زادته حنقاً على هؤلاء البرابرة، فعزم أن لا يعود حتى ينتقم منهم، صعد إلى أقرب حصن حتى إذا وصل إلى أعلاه، نظر إلى الأعداء من خلال ثقب فرأى منظراً لم يعتقد أنه سيرى مثله في حياته منظراً تتقزز منه الأبدان، لقد سمع من

قبل أن هناك من يقطع رأس القتيل ليثبت للناس أنه قتل الرجل المقصود، لكنه اليوم يرى أناساً يقطعون أيدي وأرجل القتلى ثم يرفعونها على أسنه الرماح والسيوف، بل هناك رجال يقطعون الرؤوس وآخرون يصلمون آذان الذين قتلوا في القرية الأولى.

نزل من الأعلى مذهولاً لا يدري إلى أين يذهب ولكنه رأى أن عليه أن يبحث عن أبي سارة،، فلعله جريح أو محاصر في أسفل الحصن، وجد رمحاً قد يبس الدم على مقبضه، فأخذه وانطلق سريعاً إلى الحصن الذي يليه من القرية الأولى والتي يظن أنه سيجد جاره فيها، فوجد في طريقه مسجداً فهمّ أن يصلي العصر فيه، لكنه خشي أن يُقبض عليه فيه كالفأر، فزاد من ركضه حتى وصل إلى الحصن المقصود، ثم صعد فيه فلم يجد أحداً فيه إلا شاباً مقتولاً يبدو أنه من أبناء عسير وبجانبه بندقيته ومحقن البارود، فأخذ ينظر إليه وقد اخترقت رصاصة رأسه فرق له وتذكر أمه وأخته. تنحى عنه قليلاً ثم ضرب الأرض متيمماً و اتجه إلى القبلة وكبر لصلاة العصر، وقد ألقى رمحه بجانبه، مسلماً أمره لله، وبينما هو يصلي إذ سمع هسيساً وما أن التفت مسلماً حتى رأى ثلاثة من الرجال قد صوبوا بنادقهم إلى رأسه وطلبوا منه الاستسلام، فاستسلم لقدره وأدار يديه إلى ظهره استجابة لأمر قاسيهم، فربطه بعمامته، التي كانت مربوطة على هامته، ثم أخذوا يستجوبونه:

- أين تخبئون القمح في هذا البيت أيها الشاب؟

فقال بصوت الواثق:

- أنا لست من أهل هذه الدار لقد جئت الآن فقط.

ركله رجل منهم في ظهره ركلة كادت تكسره، ثم ردد سؤاله فصوب ثابت بصره فيه بقسوة ولم يزد على ما قاله. نظر بعضهم إلى بعض ثم همّ أحدهم أن يفرغ رصاصه في رأسه، فصاح الآخر فيه قائلاً:

- لا تفعل. إنه يبدو من أولاد الأثرياء، سنفتدي به قمحاً وسمنا كثيراً.

أقاموه بقسوة وقادوه أسيراً إلى المعسكر. كان يرى القتلى بين الحصون من قومه وليس بين تلك الجثث إلا القليل من الأعداء حتى إذا خرج إلى الطريق المؤدي إلى معسكر الجيش رأى أعداداً كبيرة من قتلاهم كان أكثرهم من البدو الطامعين ففرح بذلك، وكان همّه الأكبر أن يرى جاره على أي حال يكون، أُخذ ثابت إلى المعسكر حيث سبقه أعداد من الأسرى فأوثق معهم.

استسلم ثابت لقدره، وكان الحماس لا زال يؤجج دمه، فلم يخف ولم يحسب لنهايته حساب حتى أجلسه الحارس بقسوة على مقعدته.

جعل يجول نظره فيمن حوله، فلم ير إلا كل قبيح، كانت الطرابيش الحمر نذر شر، وعلامات عجرفة وقهر، لكنه جعل يستحقرها في نفسه ويتوعدها بالقتل والتشريد. مؤملاً أنه قادر على الانفكاك وقتاً ما ومنتقما في وقت ما.

بعد قليل من وصول ثابت إلى مكان الأسرى جاءت ثلة من الأتراك والمغاربة القساة وفي أيديهم أعدادا من الأسرى يجرونهم بقسوة بالغة، ثم قدموهم إلى القائد الذي يتطاير دخان غليونه الذي يعبه بقوة من شدة انفعاله فخوراً بالانتصار مزهواً برؤية أنهار الدماء تجري بين البيوت، نشواناً برائحة البارود التي تبعثها أفواه المدافع والبنادق، عرف ثابت بعض الأسرى لكنهم ليسوا من قريته، فأخذت الحمية تنتشر في عروقه لكن ليس في يده حيلة، أخذ القائد يجيل نظره القاسي فيهم، وقد شمر شفته العليا استكباراً، ثم أشار لجلاديه أن يقتلوهم، فأطلقوا عليهم النار من خلفهم أمام أعين أربعة وعشرين من الأسرى المرعوبين، بعيداً عن الرحمة وأخلاق الشجعان وتعاليم الدين الذين ينهى عن قتل الأسرى.

ورغم شدة الخوف والحزن الذي جثم على نفوس أولئك الأسرى المساكين فقد ارتفعت معنوياتهم من جديد حينما سمعوا أصوات الرصاص الذي لازال يدوي في الحصن الكبير وحصنين آخرين، وهذا يعني بأنه لازالت هناك مقاومة لم تقبل الهزيمة، لقد ظن ثابت أن القلعة الكبيرة قد سقطت ولكن يبدو أن المدافعين قد خدعوا الغزاة وتظاهروا بالهروب بعد أن استجمعوا قوتهم ورتبوا في الحصون صفوفهم فعادوا يدافعون مرة أخرى رغم الخسائر الفادحة في الأرواح، كانت بسمات الفرحة لا تظهر على وجه ثابت ومن معه خشية من فتك الجنود ولكنها كانت تشع بشيء من السعادة الممزوجة بالخوف إلى القلب المغلوب.

*****

الساعة الرابعة ولا زال الشجعان يدافعون بشراسة رغم إحاطة الجيش بهم من كل جانب كإحاطة السوار بالمعصم، وليس لهم إلا أن يدافعوا حتى يأذن الله للشمس أن تغرب ليستطيع المحاصَرون أن يهربوا إلى الجبال من جحيم نيران المدافع ورصاص البنادق.

كانت المدفعية تغير مواقعها وتقترب شيئاً فشيئاً وكان تأثيرها في قلوب المدافعين أشد تأثيراً من تدميرها في المنازل.

وفجأة سمع ثابت رجلاً يصرخ من بعيد بصوت جهوري وهو راكب على فرسه، فالتفت مع الناس نحو الصوت فرأى رجلاً أحمراً، طويل الشاربين أخضر العينين، كريه المنظر، يربط في حزامه ستة رؤوس مقطوعة تسيل دماؤها على بنطاله، ولما تبيّن للناس صاح الجنود:

- مرحا.. مرحا .. هذا عمر أغا.. انظروا ماذا يحمل.

لقد سمع ثابت هذا الاسم من قبل، لقد تذكر قصة الرجل المكسور في المعامل، إنه الفارس الذي قتل الرجلين في السليل وكسر رجل المنبهي.

ارتعب ثابت لما رأى الرؤوس المقطوعة تتدلى وخاف أن يكون أحدها رأس عزيز عليه.

ترجل عمر أغا من حصانه ودم الرؤوس يقطر بكل وحشية على حقويه ومركبه، ثم قدّم الرؤوس إلى الباشا وهو يبتسم كضبع على جيف، ثم نحاها وجعل يغسل يديه من الدم.

انفعل الجنود من رؤية الرؤوس والدم فهاجوا، وانطلقوا ببربرية على كثير من أسراهم فخنقوهم حتى ماتوا دون أن ينهاهم أحد من قادتهم.

سلم ثابت من الخنق، إلا أن شجاعته التي جاء بها بدأت تذوب شيئاً فشيئاً من ما رأى.

وبينما هو يسترجع ذكريات ذلك اليوم المهول الذي لم يكن يعتقد بقبله أن الحرب كذلك، وتذكر كيف كان أبوه ومن حوله من الشيوخ يستعيذون منها ويلومونه على نشوته قبلها، إذ سمع نحنحة أبي سارة، فالتفت وقلبه يرتجف بحذر فرآه غير بعيد مكشوف الرأس، أشعث أغبر، وقد يبس يعض الدم على شقه الأيمن قرب الوحمة السوداء، جالس القرفصاء، ويديه مكبلتين خلفه بحبل لا يرى إلا طرفه، وقدماه مكبلتان أيضاً بعمامته المبللة بالدم، لكنه بين الأسرى في مكان أكثر أماناً من هيجان أولئك الهمج من الجنود.

على الرغم من خوف ثابت على نفسه إلا أنه اطمأن على حياة مبارك الذي يرجو أن يكون مجالاً للفداء، ولن يتوانى والده أن يقدم الفداء عنه مهما كان قدره، صرف مبارك نظره عن ثابت بسرعة عندما رأى غمزة عينه اليمنى.

نجح الشيخ منصور وعبد الوهاب وسعيد بن محي في الهرب، فقد واصل الشيخ مسيره بعد أن أعياه التعب والتفاف شديد الألم في كاحله إلى قرية (الرونة) على بعـــد (18) كيلو متراً جنوب خميس مشيط،

حيث يسكن بعض أقاربه، بينما أوصى عبدالوهاب وابن محي بالانضمام إلى عائض بن مرعى الذي يجتمع بفلول جيشه خلف الجبال الغربية.

كان لفراق ثابت الأثر البالغ في نفسي الشابين، فهما لا يعرفان عن مصيره، وإن كانوا يتوجسون شراً لكنهما لم يتحدثا كثيراً عن مصيره خشية أن يسمع أحد منهما من الآخر ما لا يسره عنه.

توجها إلى الغرب وقد أعياهما التعب، فلما أشرفا على الجيش شع الأمل في نفسيهما، وشعرا بإحساس العزة بعد الشعور بذل الهرب وألم الهزيمة، فانضما إلى الجيش. وأخذا يحدثان من يعرفان ومن لا يعرفان عما حدث في الحصون التي كانا فيها، كان عبدالوهاب يبحث عن أخواله بين الناس حتى وجد أحدهما ممسكاً بعنان فرسه ينتظر الأوامر من أمير القوم. فاحتضنه بشدة وكل منهما فرح بنجاة الآخر.

أذّن لصلاة العصر، وصلى الجيش صلاة الخوف، ولما انتهوا أمر الأمير عائض المقاتلين أن يصطفوا صفين من المشاة على شكل هلال بينما تقف وحدات الفرسان في الخلف لتقوم بالالتفاف خلف الكتائب المهاجمة.

نظر عبدالوهاب إلى سعيد وقال هامساً:

- يبدو أن الأمير يريد أن يثبت وجوده على حساب هذه الفئة القليلة أنها مغامرة خطيرة.

التفت ابن محي يمنة ويسرة ثم قال هامساً أيضا:

- أسكت .. لئلا يسمعك أحد فيعتبر كلامك تخذيلاً تحاسب عليه، أما أن تقاتل أو تنصرف.

سكت عبدالوهاب، ثم وكز فرسه وتقدم ليستمع إلى أوامر الأمير الذي أمر بتقدم المشاة في صفين، فلما رآهم قد بدو قلة أمام العدو أمرهم بدخول الصف الأول في الصف الثاني.

أما مجموعة الفرسان التي فيها عبدالوهاب وصاحبه فقد اتجهت نحو الميسرة خلف الصخور ليتهيؤوا للهجوم خلف أو جانب الكتيبة المهاجمة.

أما الأمير عائض فقد وقف في منتصف الفرسان يحيط به خمسة من أقاربه على صهوات جياد من أجمل الخيل.

كان عرض العسيريين في غاية الهيبة رغم أن عددهم لا يتجاوز الستمائة رجل، وكان هذا الاستعراض لعائض أمام الجيش الغازي بمثابة عرض قوة لم تنته بعد، وليظهر لأعدائه بأنه قادر على الرد والحرب والكر والفر مهما انخزلت عنه بعض القبائل ومهما تكبد من خسائر، والمنتصر من يكسب في الأخير.

عندما شاهد أحمد باشا قائد الحملة بيارق عسير تتقدم صاح في قادة جيشه، وأنزل فرقة من المصريين والمغاربة في الوادي ككمين، بينما أمر الشريف محمد بن عون على من معه من العرب بالمرابطة في المواقع المرتفعة، كما أمر بعض الكتائب لحراسة المعسكر، وأمر كتيبتين من

الجيش النظامي الذين يتسلحون بأحدث البنادق والتدريب الجيد لملاقاة جيش عائض الذي أخذ يستعد في ربوة تغطيها الصخور الكثيرة.

شرعت الشمس تقترب من قمم الجبال الغربية تستأذن ربها في الغروب، لا تضايقها غيوم ولا يحجب أشعتها الكئيبة ضباب، بينما بدأت القلوب تعود إلى وتيرتها التي كانت عليه في الصباح، تخفق بشدة وتدافع الدم إلى الرؤوس، فترتعش الأطراف، لكنها الشجاعة والشجاعة المفتعلة.

بدأت خيل ومشاة إحدى كتائب الغزو تتقدم، وجيش عائض صامد يرقبهم، ولكن فجأة وبعد أن أدرك جنود العدو أنهم صاروا على مرمى يناسب أسلحتهم، وبفعل الخوف من أن يبادرهم عدوهم بالرمي بدؤوا يطلقون نيرانهم قبل أن يسمعوا أوامر قادتهم، فلما سمع جنود الكتيبة الثانية رصاص زملائهم وهم يتقدمون في صفوف متتالية أخذوا يطلقون نيرانهم الكثيفة أيضاً. فوجِّي جيش العسيريين بهذا الهجوم المباغت، فأطلقوا نيرانهم لكن المباغتة أفقدتهم السيطرة فبدأوا بالتراجع، إلا أن صرخات قادتهم أعادتهم إلى الصفوف في مواقع بعيدة عن جيش العدو.

تقدم الجيش الغازي بسرعة مستغلا التراجع العسيري مطلقاً النيران في نفس الاتجاه، وكانت سرعتهم المستميتة مع كثرتهم الغالبة قد أخلت بتوازن الثلة القليلة التي مع عائض الذين لم يستطيعوا أن يعيدوا تعبئة بنادقهم، فأخلوا مواقعهم مرة أخرى وجعلوا يبحثون عن مواقع أخرى يتمركزون فيها، لكن الأتراك والمغاربة المتمركزين في الكمين لحقوا بهم وهاجموهم من قرب، بينما استغل الشريف محمد بن عون الفرصة بمن

معه من العرب فهاجموهـم من الأمام، لم يستطع عائض ومن معه الصمود أمام الأعداء فانسحبوا الانسحاب النهائي إلى الغرب حيث عاصمته وحصونه.

في المساء وزعت الجوائز على الجنود أمام مرأى الأسرى، فقد أعطي لكل خيال فقد حصانه ثلاثمائة قرش، ولكل من جاء برأس أو زوج من الأذان خمسين قرشاً، وقد كان منظرهم وهم يعدون الرؤوس والأذان مقززاً جداً، إنها - في الحقيقة - طريقة القساة الذين ودعوا معاني الإنسانية في تغذية روح الكراهية عند جنودهم. وقد سمع ثابت أن عدد القتلى من الطرفين بلغ خمسمائة قتيل.

*****

10

في اليوم التالي أخذ الجيش المصري يفيق بعد النصر على شبح خطير لازمهم كثيراً منذ أن تقدموا في الصحراء، إنه شبح الجوع وكان لابد أن يشاركهم في عضاته ثابت ومبارك المقيدان بسلاسل سلك فيها مع بقية الأسرى، إذ لم يقدم لهم شيئاً من الطعام أو حتى الماء على كثرته بل لم يمس أفواههم إلا قطرات منه.

وفي حمأة هموم الأسر والقهر وبينما كان مبارك يتابع زفراته إذ أقبل بدوي على مرأى من ثابت تبدو عليه هيبة الشيوخ قابضاً على بندقيته، متمنطقاً بحزام ارتكزت في وسطه أمام سره خنجراً مفضضة وقد علق فيه محقن البارود، أسمر اللون، خفيف العارضين كث اللحية عند ذقنه، أختلط سواد شعره الغالب على بياضه، غائر العينين، واتجه إلى مبارك الذي كان مطأطأ رأسه، ثم ركله بقدمه في ركبته فالتفت مبارك، إليه فقال الرجل بصوت أجش لكنه منخفض إلا أن ثابتاً جعل يركز كثيراً فيما يدور بينهما:

- أأنت مسفر؟!

ظهر على وجه مبارك تصنع لم يعرفه منه ثابت من قبل، ثم قال:

- ومن مسفر يا شيخ؟!.

- مسفر !! مسفر قاتل معيض وأخيه .. كأنك لا تعرفني؟ أو تتجاهلني.

- يا شيخ (أطال الله في عمرك) .. لا أعرف مسفراً ولا معيضاً ولا أخاه ولا أنت .. لا تبتليني بدم أنا برئ منه، يكفيني ما أنا فيه.

ضحك الشيخ مفتعلاً ثم قال:

- أنهض على قدميك وكلمني.

- كيف أنهض إنني مربوط.

جلس الشيخ قريباً من مبارك وأمسك بيده لغد مبارك الذي فيه الوحمة السوداء، ثم قرصه فيها وقال:

- والله لو سودت جسدك كله بالقطران فلن تتغير عليّ.

كان مبارك قد حدّ بصره وزاد في تجاهله حتى أقسم الشيخ عندها قال:

- اسمع يا شيخ عبدالله .. أنت تعرف أنني مظلوم وطالب حق،

وقد قُتل أخي وكانت القبيلة كلها في صفي.

قاطعه الشيخ:

- كنا في صفّك لتأخذ حقك من القاتل أو نصلح بينكم أما أن تقتل الاثنين فلن نرضى أبدا.

قال مبارك:

- أقسم لك أنني لم أرد أن أقتل معيض، قتلوا أخي ثم أهانوني واستصغروني فلم يجليا عن البلاد احتقاراً لي، ولما أردت أن أثأر لأخي من قاتله اعترضني معيض ليقتلني فجرحت يده، فمات منها، ومع هذا وقد أخذت بثأري ورضيت بمعيض فجلوت عن البلاد حتى تهدأ الأنفس لأن لي أبناء عم، ثم لحقني القاتل عائض يريد - تكبراً - أن يقتلني فقتلته فمن الظالم ومن المظلوم؟

- إذاً لماذا لم تأت إلى القبيلة فتخبرني أو تخبر الناس.

- فمن يتركني يا شيخ أسير على وجه الأرض بعدها؟ إن إخوانهم وأبناء عمومتهم كثير.

كان ثابت يسترق السمع - بكل اهتمام - لما يدور من حديث حتى بدأت الصورة عنده أكثر وضوحاً عن هذا الجار الذي طالما أخفى نسبه عن الناس وعاش بنسب أدنى منه، ابتهج رغم قسوة الموقف وظلمة

الأمل.

وانتبه مبارك لثابت، وعلى قدر خوفه من افتضاح أمره عند قومه إلا أنه لذّه أن يسمع ثابت أصله وقبيلته التي يعتز بالانتساب إليها.

واستأنف مبارك حديثة للشيخ وهو يلتفت يمنة ويسـرة وإلى الخلف قائلاً:

- وما أنت فاعل بي الآن يا شيخ؟

نظر إليه الشيخ وقد بدت عليه علامات من الشفقة ثم تنهد وقال:

- الله أعلم .. إنه يعز علي أن أراك مكبلاً بين الأسرى هكذا، فأنت ابن قبيلتي وبيني وبينك قرابة، وطالما حزنت لما جرى لك. ولكن أخصامك معنا في الحملة ولو رأوك لقتلوك. ولو طلبتك من هؤلاء الحمر لما أطلقوك ولكن دعني أرى ماذا أستطيع أن أعمل.

ثم هم بالوقوف ولكنه توقف وقال:

- هل أنت مستجير بأحد في بلاد شهران؟

- نعم يا شيخ.

- وهل تعتقد بأنه سيأتي ليفتديك؟

- أجل! ولكنني أخشى أن لا يعلم بي ولا..

ثم سكت.. وكان قد أراد أن يخبر بابنه، لكنه خاف على ثابت فآثر السكوت.

قبض الشيخ عبدالله على كتف مبارك ثم نهض وهو يردد النظرات بينه وبين حراسه وبقية الأسرى، ثم نفض عباءته وأنصرف يهز رأسه يمنة ويسرة متأسفاً.

نظر مبارك إلى ثابت الذي يبعد عنه عدة أقدام ثم أبتسم له قليلاً ففهم ثابت مؤكداً سمع الحديث.

اشتد خوف مبارك، فأعداؤه يركضون مع القوم وسيعرفه أحدهم كما عرفه الشيخ عبدالله ثم يفتكون به.

*****

أنتشر جنود جيش الغزاة بين الحصون التي تعتبر في مقاييس الحروب قلاع، ولكن - بالفعل - هناك مجموعة من الحصون قد أحيطت بقلعة قد بنيت في عهد علي بن مجثل. أخذوا يبحثون فيها عن مؤن تطرد عنهم شبح الجوع، بينما قام قادتهم يفتشون القلعة أيضاً فلم يجدوا سوى أربعة من القتلى فاستغربوا لذلك فقد أطلقوا (325) قذيفة من المدافع بالإضافة إلى وابل الرصاص الذي انهمل على الحصون كالمطر. وبعد حيرة صاح بدوي من الجيش قائلاً:

- لقد اكتشفت فتحة تحت الأرض.

اطلع الرجال على الفتحة فوجدوا فيها أربعاً وأربعين جثة هي التي دفنها الشيخ منصور ومن معه كما وجد رجل غارق في البئر لا يرى إلا رأسه وشعره الطويل طافياً على الماء وكان السيد علي بن سعد المسكين.

بحثوا عن المؤن فلم يجدوا شيئاً، فغضب الباشا وسأل قائداً منهم ما إذا كان يوجد أحد من رجال (خميس مشيط) بين الأسرى، فأجاب مساعد المعسكر:

- يوجد عدد كبير منهم.

فأمر بإحضار أحدهم، ولما جاء الرسول نظر في وجوه الأسرى فسأل اثنين فأجابا بأنهما من عسير ثم نظر فرأى ثابتاً فأخذه وأمر بفك قيده عن أمر الباشا دون أن يسأله، فلباسه يختلف عن لباس العسيريين. أيقن ثابت بالموت وظن أن القادم سيأخذه إلى الإعدام، نهض وقد اسودت الدنيا أمام عينيه وجعل يحادث نفسه ويتذكر أمه وأخته اللتان سيقتلهما الحزن عليه ثم تذكر سارة التي ستحزن كثيراً على فراقه أيضا. بل لقد تبدد أمله الذي ظن بأنه سيتحقق في جمعه مع سارة تحت سقف واحد.

شد الجندي يديه خلف ظهره ثم أقبل فارسين خلفه وقد صوبا بندقيتهما إلى رأسه وقد قال أحدهما:

- سر أمامنا واعلم أنه لو حدثتك نفسك بالهرب فإنك لن توسع

خطوتك حتى ينطلق رصاصنا في رأسك.

نظر إليهما شزراً ثم قال:

- إلي أين؟

فقال أحدهما:

- إلى القلعة أيها البدوي.

سار أمامهما وهو لا يعلم بما يراد به، ولما دخل القلعة وجد رجالاً قد لبسوا طرابيشاً حمراً على رؤوسهم لم يكن يعرفها قبل الأمس، ورأى ملابس رجال لم يتعود على أمثالها في هذه الديار، وما أن رآه الباشا حتى هش في وجهه وقال:

- أيها الصديق من أين أنت؟

أستأنس ثابت بابتسامة الباشا وتلطفه ثم أجاب:

- من (خميس مشيط).

- لذا فأنت تعرف بالتفصيل عن هذه القلعة.

انقبض قلب ثابت وعلم أن الباشا يريد شيئاً ما منه يمس القلعة وأهلها بسوء، فقال بلهجة جافة:

- أنظر إلى رجالك أمامك فهم يعرفون مثلما أعرفه.

اشتدت نظرات الباشا إلى الشاب وقال:

- أنا لا أسألك عن الشيء الذي تستطيع رؤيته ولكنني أمرك أن تخبرنا كيف نصل إلى الكهوف التي تحت الأرض.

طأطأ الشاب برأسه، فقال الباشا بصوت فيه حزم:

- اختر بين أمرين إما أن أقطع رأسك وأما أن تخبرني.

أدرك ثابت أن الباشا عازم على تنفيذ تهديده وليست الحبوب بأغلى من رأسه، وشعر بأنه يستطيع أن يستغل هذا الأمر لصالحه في النهاية، فقال بصوت فيه شيء من المهادنة والدهاء:

- أيها الباشا إنني سأخبركم، ولدي خبرة كافية في معرفة مواضع المدافن التي فيها الحبوب، ويمكنكم الاعتماد علي إذا اعتبرتموني أحد خدامكم لا أسير عندكم , أريد أن أعلمكم أنني لست من أهل هذه القرية ونحن الشباب في هذه الديار - في الحقيقة - غير راضين عما يفعله عائض بن مرعي، ولسنا نفضل حكمه على حكمكم، ولكننا مرغمون على ذلك، ونتمنى اليوم الذي نرى حكم عائض قد أنزاح عنا.

ابتسم الباشا ونظر إلى قادته وقال للشاب:

- حسناً أرنا مهارتك.

نظر ثابت إلى الأرض.. ثم قال للباشا:

- أرجو أن تثق بي.. فك قيدي.

قال الباشا:

- فكوا قيده.

ثم وجه حديثه لثابت وقال:

- انتبه لنفسك يا بني.. واعلم أن الرصاصة أسبق من الريح.

وبعد أن فكوا قيده فرك معصميه ثم ابتسم ونظر إلى الباشا .. وجعل يتحرك في ساحة القلعة .. ويتظاهر بمعرفة المدافن الخفية من خلال النظر إلى سطح الأرض .. ومنعطفات الطرق ونحو ذلك، ثم قال:

- احفروا هنا.

قام المهندسون العسكريون بالحفر وبعد نصف ساعة وجدوا خمسة فتحات مختومة بألواح من الحجر في عدة نقاط، فأمر الباشا أحد الجنود بالنزول في الفتحة الرابعة فربطوه بحبل ثم دلوه إلى أسفل، ولما وصل إلى القاع صرخ أن أخرجوني، فأعتقد زملاءه بأنه كان خائفاً فشجعوه، ولما رأوه مستمر في صراخه سحبوه ولكن عندما خرج جثة هامدة.

ظن الحاضرون أن أرواحاً شريرة قتلته، وقال بعضهم بل هناك بعض

البدو المختبئين خنقوه، ولم يعلموا أن مثل هذه الحفر تكون خالية من الأكسجين فإذا فتحت تحتاج إلى بعض الوقت ليدخلها الهواء ولم يخبرهم ثابت بذلك راضياً بما يصيبهم.

وأخيراً وبعد فترة وجيزة وهم يقلبون الأمر دخل الهواء إلى الحفر، وتشجع اثنان من بدو الشريف منصور الطامعين في المكافأة بالنزول إلى تحت الأرض، ثم تلاهما آخرون فوجدوا أدوات زراعية وبعض أكياس الدقيق.

أخذ الغزاة الطعام وما خف من الأمتعة وحطموا بعض الأدوات ثم خرجوا إلى المعسكر ومعهم ثابت الذي أعادوا قيده في يده، إلا أن الباشا أمرهم أن يحسنوا معاملته فالشاب يمكن أن يفيدهم كثيراً في معرفة مواضع المدافن خاصة بأنه ناقم على حكم عائض مما سيجعله أكثر إخلاصا.

*****

11

كانت الأيام تطول بقسوتها على مبارك وثابت كبقية الأسرى، وكان أخف الأسرى وطأة ثابت الذي أُعطي حرية أكثر في قضاء الحاجة والشرب وتناول فتات الطعام، بل لقد أمر له بلحاف خفيف يقيه من هجمة البرد ليلاً وقد علم أن ذلك عربوناً للتعامل معهم في كشف بواطن الأرض الحبلى بالحبوب.

وبدأ الجوع يهجم على البطون الخاوية في الجيش الذي أستهلك الطعام الذي لديه ولم يبق عنده إلا النقود الفضية التي لا تسد الرمق ما لم تدفع في طعام.

وبعد مداولات ومقايضات قبل الشيخ مشيط أمير خميس مشيط بالمفاوضات، فأرسل ابنه عليا لعقد الاتفاقية أولاً مع الباشا ومقايضته في فك الأسرى وعودة الأهالي إلى مزارعهم، فجاء علي بن مشيط إلى الباشا الذي استقبله بحفاوة واهتمام، ومنح الباشا والشريف محمد بن عون أباه وقومه الأمان بشرط أن يحضروا المواد الاستهلاكية لبيعها في المعسكر بأسعار معقولة، فجاء الناس بالسمن الذي وصل سعر الأوقية بقرشين ونصف وباللحم الذي وصل سعر الأوقية إلى روبية، وإردب الشعير

بريالين وهو الريال الفرنسي "ريال ماري تريزا" ودقيق القمح بثلاثة ريالات.

ونتيجة لذلك الصلح أقبل أهالي الأسرى، فأجبر بعضهم على تسليم ثلاثين إردبا من القمح والبعض خمسين إردبا، أما الأغنياء فقد فرض عليهم مائة إردب. وبمجرد أن يستلم الجيش الفدية يطلق سراح الأسير.

وقد كان ثابت ومبارك يتطلعان بين الجموع لعل آت ولن يكون سوى الشيخ منصور ليفك أسرهما، ولكنه تأخر حتى بدا أكثر الأسرى أمامهم طلقاء فزاد ضيق خناق الحبال على أيدي ورجلي مبارك، بينما زاد خوف ثابت على أبيه، وكلما قدم شبح من بعيد ثم لم يكن أباه ازداد قلقه عليه، وعلى حريته.

وحينما بدأت الشمس تهبط نحو الغروب وثابت ومبارك لا زالا في عداد الأسرى وعليهما أن يقاسيا مع من تبقى قهر الأسر وظلم العسكر، ليلة أخرى مظلمة، وأخذت رؤوسهم التي انتصبت طويلاً هذا اليوم ترتخي من التعب واليأس.

*****

وفي صبح يوم جديد في الأسر أخذ ثابت يخطط للهرب، فالجنود حوله جعلوا يخفون من ضغط الحراسة عليه ويسمحون له بالخروج للخلاء مع حراسة غير مشددة، بل إن بعضهم يتزلف إليه لعله يستفيد

من خبرته في كشف الحبوب التي صارت أشح مما كانوا يتوقعونه بعد أن عضهم الجوع بأنيابه الحداد.

لقد كان لتأخر أبيه وقع أليم في نفسه كما أن مباركاً يشاطره هذا الألم لكن لم يكن لكل واحد منهما أن يتحدث إلى صاحبه.

وفي ظل سحب الصيف التي أخذت تتراكم على (خميس مشيط) ولم تكن للشمس منذ شروقها إلى هذا الوقت من الضحى أي إطلالة على هضاب (خميس مشيط) وبينما كان ثابت يقوم بمساعدة الجنود بشد أطناب الخيمة التي تصارع الرياح، إذ أقبل أبوه يرفل في عباءته وفيه شيئاً من عرجة سببها الالتواء الذي أصيب به يوم الكريهة متجهاً إلى خيمة الباشا، فخفق قلبه واهتزت أركانه عندما تيقن أن أباه لم يصب بمكروه، ترك أباه حتى حاذاه ثم أصدر نحنحة عالية، فالتفت أبوه نحوه، فلما رأى ابنه حياً يرزق غشيته مسحة من فرح وحمد الله على ذلك، وبحركة عفوية جعل ثابت يرفع صوته ممازحاً أحد الحراس ويضحك معه ليظهر لأبيه بأنه غير مهان ولا مقيد كالأسرى، ثم أشار برأسه بما يعني "أنني أستطيع أن أتدبر شؤوني فلا تسل عني". وثق الشيخ منصور أن ابنه سيتدبر أمره، وهو - عادة - ما يثق بتصرفاته كثيراً، ثم أنه خشي لو أنه أخبر الباشا أن ثابتاً ابنه أن يأخذوه معهم رهينة ليكون وسيلة من وسائل الضغط على مشايخ القبائل.

صرف الشيخ بصره عن ابنه وقلبه يعتصر آلما وخوفاً عليه، ثم نظر إلى أبعد منه حيث يجلس بقية الأسرى وهم مقيدون بالحبال فرأى مباركاً

الذي قد تعلق بصره به، فهز الشيخ رأسه بأنني سأفتديك فلا تخف، واستمر الشيخ في مشيته إلى خيمة الباشا، تحت حراسة مشددة من الجنود الذين أخذوا منه سلاحه خوفاً من أن يغدر بقائدهم، فلما دخل ورفع صوته بالسلام، ظهر على وجه الباشا ملامح إعجاب بشخصية الرجل فرد السلام وتهلل وجهه له .. فجلس الشيخ قريباً من الباشا ثم قال:

- أيها الباشا لقد أخذت هذه الحرب منا الكثير، وكنت أكثر من تضرر بها هنا في الخميس، لقد دمرت محاصيلي ومحاصيل جماعتي، كما نهبت بهائمنا ودمرت بيوتنا، فإذا رأيت أنك لم تنتقم بما فيه الكفاية فافرض علي ما شئت وأنا مستعد لتقديم ذلك. لكن المهم بأننا في هذه البلاد لسنا الطرف المعادي.

ابتسم الباشا للشيخ الوقور وقال بصوت هادئ:

- كل ما أريده منك أن تزودني ببعض التموينات من حبوب وغيرها وسأدفع لك ثمنها كاملة.

استبشر الشيخ خيراً من حديث الباشا الذي قصمت ظهره مشكلة تموين الجيش، ووجد أن قطع الوعد معه فيه من المخاطر ما قد ينعكس عليه، وآثر الصدق المعهود عنه فقال:

- أنت تعرف أن الناس هنا فقراء ولكن سأذهب إلى جماعتي من أهل (خميس مشيط) الذين لا زالوا معتصمين بالجبال وسأحضر من

عندهم كل ما أستطيع الحصول عليه من تموينات.

قال الباشا:

- حسنا أيها الشيخ هل لك من أسير عندنا؟

- نعم أيها الباشا. لي جارٌ فقيرٌ لا زال أسيراً عندكم ولا يستطيع أن يفك أسره أحد، فإن أكرمتني به كنت شاكراً.

- ومن هو؟

- إنه مبارك بن حزام. ويدعى مبارك الجزار. جزارٌ فقيرٌ أيها الباشا.

نظر الباشا إلى الحرس وقال بصوت عال:

- أطلقوا للشيخ جاره إكراما له.

انفرجت أسارير الشيخ فقد كان الباشا كريماً في إطلاق مبارك بدون فدية، ولكن لن تكتمل فرحته إلا بفك ابنه معه، ثم قام الشيخ نافضاً عباءته شاكراً للباشا كرمه، واتجه إلى مكان الأسرى، وفيما هو يسير بهدوء أرسل نظرة حانية ملؤها الحب والشفقة إلى ابنه المأسور الذي جعل يبدي عدم اكتراثه بوضعه، ويظهر عدم معرفته للشيخ من خلال نظرات تجاهل مقصودة، ولما وصل الشيخ إلى حراس الأسرى، برفقه بعض الجنود وطلب مبارك من حراس الأسرى قال رجلاً عربياً يقف بجانبه بصوت منخفض:

- لم يعد هنا لقد أطلق سراحه بالأمس.

نظر الشيخ إلى وجه محدثه مستغرباً وقال:

- كيف يكون ذلك؟ ! لقد رأيته هنا قبل قليل.

هز الرجل رأسه وقال بصوت ملؤه الحدة والتهديد رغم انخفاضه:

- أقول لك الرجل أطلق سراحه، أتكذبني؟ الأفضل لك وله أن تذهب من هنا وتلحق به ولا تعد إلى الباشا، هذا إذا أردت السلامة أيها الشيخ.

تردد الشيخ كثيراً ورأى أن من صالح مبارك الانصراف ففضل الانسحاب، وأخيراً اتجه إلى منزله وقد ازدادت همومه وغمومه. ثم مكث في منزله الخاوي حتى المساء.

وفي هجعة من الليل سمع حجراً يرتطم في النافذة، فعلم أن هناك من يطرق ويريد الدخول من معارفه، فتنحى إلى إحدى النوافذ البعيدة وارتفقها ثم قال بصوت لا يكاد يسمعه من في الخارج دون أن يخرج رأسه:

- من هناك؟

فسمع صوتاً خافتاً يقول:

- افتح يا عم منصور أنا عبدالوهاب ومعي سعيد.

فتح الباب لهما مستعجلاً فاحتضنه كل واحد منهما بحرارة في زيارات عابرة للعبرات، ثم صعدوا جميعاً إلى المجلس، وهناك دار الحديث عن الحال وعن ثابت ومبارك، وقد أبدى الشيخ حيرته من أمره بشأن ثابت ومبارك الأسيرين، وبشأن التموينات التي طلبت منه، لكن عبدالوهاب قال رأياً:

- يا عم منصور القوم لن يستطيعوا الصمود كثيراً، فالجوع بدأ يفتك بهم وبإبلهم وخيلهم، ولن يجدوا ما يكفيهم، وسوف ينهزمون لا محالة، أما ثابت ومبارك فسوف ينجيهم الله، ولن يتحمل الجيش أعباء مئونة الأسرى. وأرى - إن شئت - أن تلجأ إلى (تندحة) فتبقى فيها حتى ترى فإذا رأيت أنهم قد انتصروا واستتب لهم الأمر فأقبل بما تجد واصنع لك عذراً.

هز الشيخ رأسه مبتسماً ومعجباً بالرأي الذي قد جال في خاطره ثم قال:

- وأنتم ماذا ستصنعون؟

قال عبدالوهاب:

- نحن لن يهدا لنا بالاً حتى نفك أسر ثابت ومبارك.

ثم أردف سعيد بن محي:

- بل وننتقم لآبائنا وجماعتنا من هؤلاء البرابرة.

طأطأ الشيخ رأسه وجعل ينكث في الرماد بعود في يده وهو يفكر ثم قال:

- إنني أخاف عليكما يا أبنائي .. فالعدو لا يرحم.

فقال عبدالوهاب:

- لا تخف يا عم.. الآن وهم بهذه الحالة يصعب علينا مناورتهم لأنهم في مكان مكشوف وليس لنا مكان نناورهم منه، ولكن الموعد في جبال عسير.

ثم أردف سعيد:

- نسأل الله العون .. وليكن بالك مطمئنا على ابنك ومبارك.

قال الشيخ:

- أنا واثق من شجاعتكما.. ولكني أخاف من تهوركما.

قال عبد الوهاب:

- لا تخف .. لا تخف.. سنقضي بعض الأيام بين القرية وفي (تندحة) وجبل عسير حتى يتأتى لنا القيام بالمقاومة سواء بمفردنا أو بمشاركة

الأخوة في جبال عسير.

دعا الشيخ لهما بتوفيق الله وحفظه، وأوصاهما بتقوى الله والمحافظة على الصلوات في أوقاتها مهما كان الأمر، ثم غادر الشابان في جنح الظلام.

*****

12

طلعت الشمس على نفوس كئيبة خائفة من مصير قاتم تهدده أشباح الجوع، وفي الضحى - وكالعادة - بدأ الجنود يجرون العشرات من الجمال الميتة التي أهلكها الجوع لأيام، وقد أخذت جيف الإبل تتراكم غير بعيد من المعسكر، فقد أهملها الجيش بعدما قضى على المراعي وحصد المزارع وآثر إطعام الخيل التي يحاربون عليها ويمتلكونها على الإبل التي يمتلكها العرب المساكين.

وفي اليوم نفسه وبعد صلاة العصر اشتدت قوة الريح تظللها غيوم متراكمة سوداء مخيفة، غطت الفضاء بعتمة لم يعرف الجيش مثلها، وبدأت العواصف الرعدية تنذر بأمطار غزيرة جدا، وكذلك فقد استمر البرق يشق السماء بأنواره المروعة يصاحبه رعد قاصف خطف النوم من أجفان الجنود الذين جعلوا يذكرون الله كثيراً بعدما نسى أكثرهم ذكره.

وانهمر المطر قبيل المغرب من مزنه كأفواه القرب، وفي جلبة الجنود الخائفين، جعل ثابت ينظر إلى السماء ويراقب أعين الحراس ويدعو الله أن يعاقبهم ويقذف الرعب في قلوبهم.

كانت المياه تتسرب وبشدة داخل الخيمة التي يسكنها ثابت مع

الأسرى حتى أغرقت أرضها وبات الجميع قياماً، وهنا أدرك ثابت أن الفرصة قد سنحت لهروبه ويجب أن لا يضيعها. فقال للحارس المبلل بصوت فيه شيء من التأنيب والسخرية:

- هل نبقى هكذا مثل البهائم لا نستطيع أن نمنع أنفسنا من تسرب الماء يا نجيب باشا؟

فقال الحارس بانفعال:

- وماذا نفعل يا ثابت بدوي؟!.

- دعنا نحصن الخيمة بالطين ونجعل للماء مسرباً يجري فيه بعيداً عنا إلى الشعب.

- ولكن من الذي يستطيع أن يعمل هذا تحت هذا الوابل الشديد من المطر؟

- أنا يا سيدي .. أنا معتاد على ذلك.. فقط أريد مسحاة ومكتلاً.

- ولكنك أسير وأخشى أن تهرب.

ضحك ثابت وقال بسخرية:

- أهرب؟! وفي هذه الظروف؟! إلى أين؟ هل أنا مجنون؟! سأموت غرقاً من السيول .. ثم إن الباشا لم يعتبرني أسيراً وسوف أكون من المقربين

إليه يوماً.

ضحك الحارس من ثقته بإكرام الباشا له رغم أنه ليس موثقاًَ كغيره من الأسرى ولكنه في عدادهم. وبعد تردد قال الحارس:

- أسمع يا " ثابت ".. لو حاولت الهرب فسوف ألحق بك وأقتلك بنفسي، لن تستطيع الابتعاد، فهذه البندقية تقتل من بعيد جدا.. أنت تعرف ذلك.

- ضحك ثابت وقال:

- ما هذا الكلام يا نجيب باشا؟! وهل أنا أحمق؟! .. أين المسحاة والمكتل يا رجل؟

صرخ الحارس بصاحبه وأمره أن يحضر المسحاة والمكتل من مكان غير بعيد يتبع المهندسين، فجلبهما وهو يركض شاتماً صاحبه والمجنون الذي سيعمل تحت رحمة هذا المطر.

أخذ ثابت العدة ورفع طرف ثوبه وربطه على حقويه، وشد من ربط عمامته المبللة على رأسه الذي قد تروى شعره الطويل الأشعث من المطر، ثم شرع يحضر التراب من بعيد ثم يأتي ويصبه قليلاً قليلاً على أطراف الخيمة.. وهو يصيح على الحارس يمازحه تارة ويشتمه تارة أخرى ليطمئنه على أنه قريب. كان الظلام داجياً ولكن البرق لم يرحمه فهو يمزقه إرباً من حين لأخر، وجعل ثابت يتأخر مرة بالمكتل ويعجل أخرى

وكلما تأخر صاح به الحارس من داخل الخيمة:

- لماذا تأخرت يا ثابت ؟

فيجيبه بصراخ عال:

- ظلام والتراب قليل ولا يتجمع من شدة المطر.

وكلما أضاء البرق الأفق نظر ثابت إلى المسالك يتتبع الأماكن التي يمكنه أن يهرب من خلالها والجبل الذي سيحتمي به.

وذات مرة وعلى غفلة من الحارس أطلق ساقيه للريح نحو الشرق لا تحمله نعليه لكن شيئاً ما هو الخوف يحمله ويقذف به نحو النجاة، وكلما برَقَ برْقٌ وقف وتطامن، حتى إذا وصل إلى جبل قريب اعتصم به ثم انحدر منه إلى الشعب الذي تحته وانطلق على ضفته يسابق الماء إلى الشرق تارة وإلى الجنوب تارة..

لم يسمع أي صوت ينادي في الجيش معلناً عن هروب أحد.

وما أن انحدر إلى (شعب ذهبان) حتى خاض سيله الذي بدأ يرتفع ماؤه،

تردد في الاتجاه هل يتجه نحو (تندحة) حيث أمه وأخته وسارة؟ أم ينطلق جنوباً إلى (الرونة) حتى يلملم جراحه ويخطط للانتقام لأصحابه وجماعته؟ وبعد تأمل شوشت لهثاته وعثراته اتجه إلى (تندحة).

كانت الأمطار تزداد وتهدأ بلا انتظام، بينما بدأ بالألم يعضه في قدميه الحافيتين اللتين تصطدمان من حين لآخر بحصى أو تنغرس في سطحها الخشن شوكة.

ولما توسط المسافة نظر خلفه فلم يسمع صوتاً أو يرى طارداً فأخذ يهدئ من روع نفسه، ولجأ إلى إحدى الصخور الصغيرة فاتكأ عليها تحت رحمة الله عز وجل الذي أوقف المطر وأسكن الريح.

جعل يتلمس نفسه ويلتفت نحو (خميس مشيط) ويضحك فرحة بحريته التي قد خشي أن لا ينالها إلا بعد أن تفارق روحه جسده.

تلمس قدميه في ظلام الليل الدامس الذي زادته الغيوم ظلاما، فلم يميز بين الماء وبين الدم الذي تناثر على ظهر قدميه من أصابعهما التي بدأت تتخدر من شدة البرد.

خشي أن يكبس برد المطر على بقية جسده فيشله عن الحركة وهو لا زال ينبض بدم حار يركض في عروقه. فنهض متكأ على الصخرة وأعضاؤه تنووء بآلام متفرقة ثم رفع منخريه نحو الشرق وسحب الهواء بشدة إلى رئتيه.

ولما حرك قدميه المثقلتين شعر بألمهما يزداد فجلس سريعاً، ثم أخذ طرف ثوبه الأسفل فشقه من تحت منتصف ساقه، ثم قسم الخرقة إلى نصفين، ثم ربط قدميه بشده وقام بعدها، وقد هز عوده كالرمح وكأن

وقوداً حاراً قد انتشر في عروقه.

أخذ يسير قليلاً ثم يهرول ثم يركض، يئن من ألم قدميه تارة، ويضحك عندما يسقط تارة أخرى يحدوه أمل الوصول وتدله أشباح قمم الجبال الشامخة في الفضاء من بعيد، وقد بدأت أثقال الغيوم تنقشع عنها. ولم يبخل على نفسه من وقت لآخر بأن يستريح تحت بعض الصخور ليسرب بعض جهده.

لم يعر لنباح كلاب البدو البعيدة عن اليمين والشمال وحتى عواء الذئاب أي اهتمام، بل كان ينتظر بفارغ الصبر نباح كلاب أهل البيوت المتناثرة على أطراف وادي " تندحة " الجميل. حتى إذا شق الفجر حجاب الظلام من الأفق وبدأت أصوات المؤذنين ترتفع إلى عنان السماء معلنة دخول وقت صلات الفجر أشرف على (تندحة) فرفع رأسه إلى الأفق فوق جبل مانع العريض الذي يحتضن (تندحة) من الشرق فرأى الخيط الأبيض من الفجر يمتد على طوله كالخيط الأبيض، اشتد فرحه وأطلق لقدميه العنان التي نشطت في الركض ونسي ألمهما، لكنهما بدأتا تثقلان عليه شيئاً فشيئاً حتى دخل القرية وهو يلهث وقد بلغ منه الجهد مبلغه وهو يجاهد نفسه ليصل قبل أن يسقط فتأكله الذئاب أو لا ينتبه إليه أحد.

وأخيراً وصل إلى قرب المسجد الذي لا يبعد عن بيت أخواله إلا خطوات، فلما رأى رجلاً متجهاً إليه خارت قواه وفقد السيطرة على جوارحه .. حاول أن ينتزع قدميه من الأرض فأبتا.

وبدأ الدوار يخيم على رأسه فانهدم إلى الأرض حيث الوحل قد غطى كل الطريق.

رآه رجل قادم إلى المسجد وهو يسقط إلى الأرض فصاح في من في المسجد فحلموه بين أيديهم وأوصلوه إلى بيت أخواله حيث تأوي أمه.

كان النساء قد استيقظن لصلاة الفجر، وكانت أمه المسكينة وأخته ونساء مبارك بن حزام وأم عبدالوهاب في بيت واحد هو أحد بيوت أخواله الطيبين، وقد عاشوا فيه أياماً عصيبة في ظل انتظار رهيب بين حزن ويأس، وبين أمل ضعيف لا يكاد يحمل عنهم شيئاً من الهموم. وجيء بثابت محمولا بين أكف الرجال وقد ارتفعت أصواتهم، كل واحد يوصي صاحبه بحسن الحمل أو الاستدارة أو الرفق في التنزيل.

لم تكن أم ثابت لتنام قريرة العين وفلذة كبدها وزوجها يصارعان الموت ورصاص الغزاة، إن أي هسيس كفيل بأن يجلب الفزع إلى قلبها الرؤوم. لذلك كان لصوت الرجال جلبة أفزعتها وأخرجتها ولقلبها وجيب شديد، وما أن أشرفت على الرجال حتى سألتهم بصوت متهدج عمن بين أيديهم؟ فقال أحدهم محاولاً تهدئتها:

- أبشرك بأنه بخير .. إنه ثابت.. مغمى عليه من التعب فقط.

انطلقت الأم تنظر في وجه ابنها، في حين أنزله الرجال على الأرض عند المدخل.. ودوت صرخة من الداخل عند سماع اسم ثابت وما هي إلا

لحظات حتى اخترق الجمع فتاة مذهولة جثت على ركبتيها أمام وجهه وهي تبكي بكاء يكاد يقطع نشجيه القلوب وهي تقول وتقلب وجهه:

- ثابت.. ثابت.. جعلت فداك.. ما الذي أصابك؟

ذهلت الأم وأخذت بكتف الفتاة محاولة تهدئتها ولكنها كانت في حالة من الانهيار، أقبلت زوجة مبارك بمصباح ترتعش فتيلته في يدها وبجانبها نورة أخت ثابت، وقد ملأت فمها بخمارها لتكتم نحيبها.

عرف النساء أن الفتاة التي تنتحب قرب ثابت هي سارة التي أدركت في لحظة أنها قد فقدت أعصابها وأنها سبقت أم الشاب وأخته عليه، وتذكرت في لحظة حاسمة أن الرجال حينما تنهض سيلومونها، فعقرها الحياء وصعد دمه إلى رأسها، فانكبت على صدر ثابت مغشياً عليها في اللحظة التي غادر الرجال إلى الصلاة.

أفاق ثابت على الصياح وبكاء النساء ففتح عينيه فرأى النساء على سفرة الصبح وقد التففن حوله وعلى صدره رأس فتاة فظن أنها أخته فوضع يده على رأسها يربت عليه وابتسم لأمه ولمن حوله ابتسامة متهالكة أعياها التعب والخوف والجوع.

أنكبت أمه على وجهه تقبله وتبكي بينما أقبلت أم (سارة) إلى بنتها وقد علا الخجل والحرج وجهها فأمسكت بإبطي ابنتها تساعدها (نورة) التي ذهلت بين خوف وفرح وخجل.

كان منظر النساء الباكيات وخوفهن وفرحهن الممزوج قد خنق ثابتاً بالعبرات، وما أن رأى حالة سارة والنساء يساعدنها على النهوض حتى أرتعش قلبه واستخرجت العبرة أمطارها فهملت دموعه من محاجرها دون أن يظهر للبكاء نحيبا.

وجعل يتلمس الأرض لينهض فيلحق بسارة يطمئنها ولو بالحركة ولكن الصحة أعيته فأخذت أمه بإبطيه ورفعته، يساعدنها نساء أخواله وقد ارتفع صوت نشيجهن وهن يهادينه إلى المجلس في أعلى المنزل المكون من ثلاثة طوابق طينية.

ولما انتصف السلم لحقه أخواله وبقية الرجال بعد عودتهم من المسجد فحملوه إلى فراش أعدً له بالقرب من الموقد فأسلم جسده المنحط عليه بينما كانت عيناه الزائغتان تنظر يمنة ويسرة تبحث عن (سارة) لكن (سارة) قد لجأت إلى حجرة بعيدة كانت أمها قد أودعتها فيها وهي تؤنبها على فعلتها، إلا أن كل الناس ما عدا نورة يظنون أن سارة قد فعلت فعلتها بحكم أنه ابن ولي نعمتهم بل إنهما تربيا قريباً من بعضهما.

لم يستطع ثابت أن يستمر في البحث بعينيه عن محبوبته فقد أرهقهما الجهد وأغمضهما النعاس الذي دب في أعضائه، وبعد صلاة عاجلة على فراشه أسلم جسده لدفء النار التي يتراقص لهيبها حوله، فراح في سبات عميق.

*****

في ذلك الصباح أقبل الشيخ منصورمن قريته إلى (تندحة) حيث يأمن أهله وجيرانه. كان راجلا يسير على قدميه المنهكتين، فقد خبأ فرسه بعيداً خوفاً عليها من غصب الغزاة. وقد اشتدت قبضته على بندقيته الفتيل، يسير مستقبلاً ضوء شروق ساطع عقب ليلة مطيرة، وقد أزاح وقع الشروق السحائب الكثيفة لتروي الأرض نوراً ودفئاً ونشاطا.

وفي الطريق الذي يقطعه بأقدام رقت نعالها كانت الهموم تصطرع في نفسه، لقد كان لوقع الحرب في نفسه أثراً شديداً فلا بد أن هناك الكثير ممن يعرفهم قد داستهم سنابك الخيل وقطع البرابرة أجسادهم، لا يدري ما هو مصير ابنه الحبيب؟ وما هو حاله البارحة؟ وهل لا زال على قيد الحياة أم أن المنون قد تخطفته بين الأسرى؟

هو وأهله بل وأهل حية لاجئون خائفون في قرى ليست لهم وبيوت لا يملكونها. ضيوف على أصهار كرام، ولكنها مهما تكن غربة جبرية وإن قرب المكان وعز الجار.

وبينما هو يعالج الآلام والأوهام وصل إلى وادي (الفيض) الممتد بين خميس مشيط وتندحة ليجتازه من بين أشجار الطلح إذ برجل قد قرب صوت قرع نعله المتسارع منه، فوقف الشيخ وهيأ بندقيته المشحونة للدفاع والهجوم وجعل ينتظر ليتبن القادم، وسرعان ما ظهر صاحب الصوت فإذا هو جوهر الجزار وقد ارتسمت على وجهه المجدور دهشة

المفاجأة، يحث السير وهو متمنطق خنجره وحامل بندقيته الجديدة. فسلم على الشيخ بصوت مرتبك،

رد الشيخ السلام وقال له قبل أن يقترب منه:

- من أين أنت قادم يا جوهر؟ وعساك لم تصب بشرّ في الحرب؟

فأجاب بصوت متردد:

- إنني قادم من عند صديق لي بدوي في وادي " مَجْعَل "، لقد هربت بأهلي من فتك الجيش وظلم الحكام، وليس لي في هذه الحرب ناقة ولا جمل.

لم يكن الشيخ قد رأى جوهراً في مثل هذه الحالة من الارتباك بل إن نظراته، وأسلوبه يدلان على كذب فاضح.

عرض عليه العودة وتناول الغداء معه في تندحة، لكن الرجل رفض بشكل قاطع وانصرف على عجل.

شيعه الشيخ بنظرات استغراب، ثم عاد متجهاً نحو تندحة وهو يصارع أفكاره، ويطارح أعذاره، ولا يدري ما يقول عن ثابت وعن مبارك، هل يبشر بسلامتهما وهما لا زالا بين أيدي الطغاة، أم يتحمل عويل النسوة أمامه؟

وصل إلى تندحة فاستقبل بلقاء عاصف خاصة من ابنته (نورة)

التي احتضنته وجعلت تبكي حتى انهارت من شدة البكاء، أخذ النساء يبكين متأثرات بها. وفيما هو يسندها ويحاول تهدئتها إذ أقبلت زوجته متهللة فقبّلت يده وقالت بصوت متهدج:

- أبشرك أن (ثابتاً) بخير.

خفق قلبه ونظر إليها مستغرباً وقال:

- ماذا؟ ثابت؟ وما يدريك؟

ظن الشيخ أن المرأة تريد طمأنته كذباً زاعمة أن أحداً قد جاءها بخبره لكنها قطعت تخميناته بقولها:

- لقد قدم فجر اليوم، وهو في العلية الآن.

دهش الشيخ وقال:

- غير معقول لقد رأيته البارحة عند القوم. أنا لا أصدق!.

- بل صدق .. إنها الحقيقة ولله الحمد.

ثم أخذت بيده وهي تجذبه برفق وتقول:

- هيا أريك إياه.

انشرح صدر الشيخ، وعلم - بعد رحمة الله ولطفه - أن وعد الشاب

له أن يتدبر أمره قد أُنجز، فانطلق إلى المجلس يسابق زوجته يكاد يطير من الفرح، وهناك وجد ابنه مصوب بصره نحو الباب الذي دخل منه، فانكب عليه يقبله ويحمد الله على سلامته، حاول الشاب أن ينهض إلا أن الأب لم يمكنه من ذلك فأمسك برأس أبيه الذي بين يديه وجعل يقبله بحرارة ويدعو له.

تحامل الشاب وجلس وقد تهلل وجهه المنهك بمجيء أبيه سالماً.

أخذا بأطراف الحديث وكان أكثر ما يعكر صفوهما اختفاء مبارك وعدم فكاكه رغم صدور الأمر بذلك.

وبينما هما على وجبة الفطور إذ أقبلت (سارة) وقد حجبت ثغرها باللثام فسلمت على الشيخ وحيته، ثم قالت وهي تبكي:

- عم منصور.. ماذا حدث لأبي؟ هل قُتل أم لازال حياً؟

ثم خنقتها العبرة فلم تستطع أن تكمل حديثها الذي بدا للشيخ أنه لم ينته بعد.

طأطأ (ثابت) رأسه وقد اشتد حزنه حينما سمع بكاءها، بينما نظر إليها الشيخ وقال بلهجة أسيفة:

- أي بنيتي.. لقد قيل لي حينما جئت أفتديه أن أباك قد فك أسره البارحة وسوف يأتي قريباً (إن شاء الله).

قالت الفتاة وقد غلب البكاء على كلامها:

- لو كان قد أطلق سراحه لسبقكما إلينا.

رفع ثابت رأسه إليها وقد استجمع عزمه وقال بصوت منخفض:

- " سارة ".. إن لم يأت أبوك الليلة .. فإنني أعدك أن آتي به (إن شاء الله) إلا أن يصبيني مكروه.

تأملت الفتاة فيه بعينيها المرهقتين وقد امتلأت محاجرها دمعاً أحرق فؤاد ثابت، ثم انصرفت ولها نشيج قطع نياط قلبه.

أخذ ثابت يستجمع قواه، ويتماثل للشفاء والنشاط، فقد خرج إلى الوادي ذلك اليوم، وجعل يصارع التعب والآلام التي لا زالت ساكنة في أعضائه، حتى إذا أقبل اليوم التالي وقد أخذ قسطاً كافياً من الراحة أقبل عبدالوهاب وسعيد يمتطيان فرسيهما وهما يغردان بأناشيد حربية. سمع الناس شدوهما فخرج بعض الرجال ومعهم صديقهما ثابت يستقبلونهما استقبال الفرسان بينما فتحت النوافذ العالية من أمام النساء ليرين المحاربان القادمان.

ترجلا عن أفراسهما وعانقا ثابتاً وبعض الرجال، لكن عبدالوهاب انطلق إلى أمه التي استقبلته بأحضانها وهي تبكى وتحمد الله على سلامته وتتلمس وجهه كالمتفقدة.

كان لاستقبال الشابين الذين دخلا مع الناس أثرا كبيراً في نفسيهما، وجعلا يتحدثان عن المعارك والقتل وما حدث بتفاصيل مثيرة وكأنهما المنتصرين فيها.

بعد تناول وجبة الغداء أستاذنا من الجمع للانصراف، بعد أن استغرق عبدالوهاب وقتاً طويلاً يسترضي أمه لتأذن له، ولما أذنت له كان ثابت قد جهز فرس خاله الشهباء، ثم انطلق إلى أبويه يسترضيهما أيضاً فأذنا له على مضض من أمه، وبينما هو يغادر البيت صرخ بأعلى صوته ليسمع سارة:

- يا سارة.. لعينيك.. والله لآتين بأبيك إلا أن يحاط بنا.. (ورفع صوته ليسمع الباقون) تذكري يا (سارة) أن لأبيك علينا حق الجوار.

انتفخ صدر (سارة) بشهقة هواء ملأت صدرها سروراً، ليس لأن ثابتاً سيعيد أباها، ولكن لأنه ناداها أمام الناس ووعدها وهم يسمعون، ولأنه قد أظهر شجاعته المعهودة التي توهم نفسها بأنها أحبته من أجلها.

انصرف الشباب أمام أعين المعجبين بهم والخائفين عليهم وهم يدعون الله لهم بالعون والنصر والسلامة. وكانت وجهتهم إلى (مناظر) في جبل عسير منتظرين مقدم الغزاة.

*****

13

في الصباح الباكر وتحت ظلال الغيوم البيضاء أخذ العسكر النظاميون في الجيش الغازي يرتبون صفوفهم في عرض عسكري لم يألفه أهل البلاد الذي تسلقوا فوق أسطح بيوتهم العالية ليشاهدوا بعين الحقد والكره لهؤلاء القتلة وهم يغادرون بلاهم التي جثموا على صدرها أحد عشر يوماً أسوداً.

لم تكن الطبول والمزامير التي أخذت أصواتها العالية تدوي في الشعاب لتسري عن أنفس أولئك المكلومين، بل إنها كانت تدك مسامعهم وتزيد من غضب قلوبهم التي تغلي كالمراجل.

كان قادة الجيش يرون في مغادرتهم إلى جبل عسير نهاية أتعابهم وآلام جندهم فهناك مقاليد الحكم وفي (مناظر) مركز العاصمة التي تقود عسير. وفي محيطها ستكون نهاية عائض بن مرعي وقيام دولة تستمد سلطتها من القاهرة التي عجزت أن تسيطر على هذا الجزء العنيد من البلاد العربية.

قطع الجيش الشعاب والأودية ورقى الجبال والهضاب في رحلة لم تدم طويلاً فمسافتها لا تتعدى الخمسة والعشرين كيلاً، ولم يكن فيها

أحد يجرؤا أن يقاتل أو يردع. حتى إذا وصل إلى (مناظر) وتقارب الجيش في السوق أقام الجند معسكرهم وبني للباشا والشريف خيامهما.

كانت (مناظر) في وسط أبها وقد أتخذها علي بن مجثل عاصمة لعسير عام (1242هـ- الموافق 1827م) . وبنى قصره الجميل فيها وسماه (مفتاحه) واتخذه مقراً لإدارة الحكم، وقد كبر الحي الذي هو فيه، وبنى الكثير من الوجهاء وكبار القوم قصورهم في حدائقهم الواسعة التي تسقى مباشرة من الوادي، بواسطة قنوات ري منظمة، وقد كان لقرب موقع السوق أهمية كبرى لاختيار هذا الموقع لقصر الحكومة.

كانت مناظر الجبال الغربية الشاهقة قد أسرت الجيش، بل إن غاباتها ونباتاتها الخضراء التي تشرح الصدور قد أعطت منظراً مغايراً جذاباً لحقول الذرة الجافة المحصودة في السهل.

ولكن .. إن في المغارات لسباع ضارية.. ففي حصون (ريـدة) الشهيرة - التي تقع في أحضان الجبال - يتحصن عائض بن مرعي ومن معه، وفي المغارات وأكناف الجبال يترقب رجال لم يستسلموا لقهر المغتصب، ومهما تكن تلك القوات وجحافلها الرهيبة إلا أنها لن تصمد إلى الأبد، وسوف تتكسرا أشواكها على صخور الصبر والمجالدة، والتي يجيدها كثيراً رجال أشداء تمرسوا على الحروب فزودتهم خبرة ويقينا بالنصر المعهود الذي يمنحهم الله إياه دائماً.

أما أولئك الرجال الذين بقوا في منازلهم ومزارعهم بالقرب من خيام

العدو فقد حاربوا عدوهم بأسلحة الألسن التي طالما هدمت الجيوش، فقد استخدموا الحرب النفسية دون أن يعلموا بأنها تسمى كذلك، فكانوا يشتمون أفراد الجيش من بدو ومصريين ويقولون لهم "لقد لعب بكم محمد علي .. إنكم دمى له", ليس هذا فحسب بل إن بعضهم ينشد بأناشيد وأهازيج جارحة من شتم وتخويف وتهديد مما أثر على معنويات الجيش.

*****

كان عبدالوهاب قد وصل إلى أخواله في ضواحي أبها وبصحبته صديقيه ثابت وسعيد، وكل منهم قد وجد نفسه محشيا بالغيظ على هذا الجيش الذي تمركز في قلب المدينة وأخذ يستعرض قوته ويعيث في المزارع والبساتين الفساد، فالعسكر جياع والسلطة في أيديهم، والناس في البلد يرزحون تحت أفواه بنادقهم.

انخرط الشباب الثلاثة في مجموعة واحدة يقودها خال عبدالوهاب، بينما تشكلت مجموعات صغيرة من كل القرى المجاورة لشن حرب عصابات متفرقة يمكنها أن تبث الرعب في قلوب الجنود وتكبدهم خسائر روحية ومادية، يساعدهم في ذلك الظلام الدامس الذي يسيطر على المنقطة ليلاً وكثرة الشعاب والبساتين والجبال التي يمكن أن تشن من خلالها تلك العصابات حربها المحددة.

بالطبع ليس باستطاعة العسيريين - ذلك الوقت - إقامة حرب

مكشوفة مع الأعداء، لذا فان تكتيك " أضرب وأهرب " هو أفضل ما يمكن أن يؤلم العدو.

في أولى عملياتهم وبعد الظهر الثاني من وصول الجيش، أقبلت الفرقة التي تضم الشباب الثلاثة إلى مناطق العمليات من الجهة الشرقية الجنوبية، وتمركزوا خلف حواجز المزارع بعدما حدد قائدهم هدفه الذي كان مركزاً متقدماً لحماية الجيش، فاتخذ كل واحد من الفرقة مكانه، وكانت الخطة تقتضي أن ينتظر المهاجمون إلى الليل بعد رصد تحركات العدو، ولكن في لحظة حاسمة وفي حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر كادت الفرقة أن تكشف من خلال جندي من العدو ابتعد نحوهم لقضاء حاجته، فقبض عليه بعض أفراد الفرقة لكن صراخه المتعمد نبه رفاقه، فبادر الشباب باقتحام المركز المتطرف وسيطروا عليه، وبدأوا يمطرون المعسكر الرئيسي بوابل رصاصهم مما قذف الرعب في قلوب الجند.

دهش الباشا من جرأة هذه الثلة، فأرسل خيالته لملاقاتهم فانسحب المهاجمون بسرعة فائقة، ولم يستطع اثنان منهم أن ينسحبا مع رفاقهما بسرعة، فاتخذا وضع الدفاع، وكان أحدهما ابن خال عبدالوهاب، وهو صغير لا يزال في سن المراهقة، استمات كثيراً في قصفهم ببندقيته إلا أن الكثرة قبضت على صاحبه أما هو فقد ضربه جندي من خلفه بكرسي البندق في ظهره وتمكن من تصفيده وجيء بهما إلى المعسكر.

كان الباشا قد أعجب بالشاب الصغير لكن إعجابه لم يمنعه من التحقيق الشديد معه، للحصول على أي معلومات عن فرقته ومع هذا

عجزوا أن يصلوا إلى ما يريدون منه، فأمر بحبسه مع صاحبه ولم يدوما طويلاً فقد استطاعا الهرب بعد يومين.

في كل مساء وعلى مدى خمسة أيام متتالية، جعل المقاومون يطلقون نيرانهم في الظلام على المعسكر من بعيد ولم يستطع الباشا أن يمنع ذلك، إلا أن وقْع الإصابات التي يعاني منها الجيش كان أقل من ألم الجوع الضروس الذي أخذ يفرض واقعه المرّ على جيشه، لقد أكل الجيش الأخضر واليابس، وحطم أسوار الحدائق وأكل ما فيها من ثمار، حتى أكلوا ورق الذرة وقصبها لسد رمق الجوع.

كان ثابت يهم في كل ليلة باقتحام المعسكر ليرى أين يحتفظون بالأسرى، لعله يستطيع أن يطلق سراح مبارك، لكنه كان يفشل إلا في الليلة الثالثة، فقد تنكر وتلثم ثم دخل بين البيوت ودار بحذر بينها لكن أحداً من المواطنين لم يدله مكان الأسرى.

وفي اليوم السادس من وصول الجيش إلى (مناظر) عنَّ للشريف محمد بن مرعي أن يتزوج ابنة أحد الأعيان في المنطقة، وأقام حفلاً بهذه المناسبة دام ثلاث ساعات استطاع عبدالوهاب وسعيد أن يحضراه مع بعض الشباب، وقد كان همّ الجند أن يأكلوا بعد جوع ويرقصوا بعد غم، بينما كان همّ شباب المقاومة أن يعرفوا من قرب قوة العدو والثغرات التي يستطيعون أن يخترقوها في عملياتهم المقبلة ويفكوا أسراهم.

وأخيراً وبينما ارتفعت أهازيج الحفل في سماء (مناظر) كان ثابت

عند أحد القصور يبحث ثانية عن مكان الأسرى وقد شدّ لثامه تحت ذقنه حاجباً فمه وطرف انفه، سمع أحد الجنود المصريين يسأل صاحبه قائلاً:

- أين نجيب يا أسامة؟

فأجابه أسامة قائلاً:

- إنه في (النبتشية) عند الأسرى.

عرف ثابت أسامة، وعرف نجيب فقد كانا يراهما حينما كان أسيراً.

خاف أن يستوقفه أحد العسكر فيعرفه، وخاصة عند انصراف الجنود من الحفل فانسحب وتابع سيره إلى الوادي لينتظر صاحبيه.

بعد ساعتين من الانتظار أقبل صاحباه ومعهما شاب آخر من جماعة أخوال عبدالوهاب، ولما التقى بهما أخبرهما بما فعل، لكن الآخر الذي قدم مع عبدالوهاب وسعيد قال:

- إني أعرف المكان الذي يحتفظون فيه بالأسرى، فقد وضعوهم في بيت أحمد بن مرعي، وهو حصن يصعب اقتحامه إذا كان فيه حراس.

قال ثابت:

- لا يهم.. أريد أن أعرف أين يقع هذا البيت.

قال الشاب:

- إنه..

فقاطعه عبدالوهاب بحدة قائلاً:

- ماذا تقول أنت؟! .. أما تقول بأنه يصعب اقتحامه؟

غضب ثابت من مقاطعة عبدالوهاب ونظر فيه بحدة رغم أن عبدالوهاب لا يميزها في الظلام، لكن قيامه العصبي عبر عن هذه الغضبة.

وفجأة سمعا همهمة حصان ليس ببعيد، فقاموا وتفرقوا من مكانهم وفتشوا المكان فوجدوا رجلاً يقف في شعثة أشجار يكتم حصانه، فامسكوا به، وبعد تهديده بالقتل اعترف بأنه من جواسيس الجيش، فأحكموا وثاقه وأخذوا حصانه ثم سحبوه إلى القرية حيث انتزعوا منه الكثير من المعلومات التي تفيدهم ثم ربطوه أسيراً.

*****

بعد مضي سبعة أيام شداد في (مناظر) غلب على ظن بعض القبائل أن هذا الجيش سيتولى امر البلاد - لا محالة - فبدأت القبائل تفد إلى (مناظر).

وفي صباح ذلك السابع الذي ارتفعت شمسه وبينما أخذ شباب المقاومة مواقعهم في الجبال البعيدة ليراقبوا الجيش ويتخطفون القاصي

منهم، وبين هؤلاء الفرسان الثلاثة الذين بدءوا يتذمرون من بطء العمليات ومحدودية نتائجها إذ سمعوا قرع الطبول تتقدم من الجهة الشمالية للمعسكر، فاستشرفوا ليروا ما الذي جعل هذه الطبول تدق هذه الساعة، وهل هذا يعني أن هناك مدداً قادم لا يعرفون عنه؟ أم أن الجيش يتحرك من جهة لأخرى ويقصد القيام بعملية خاطفة في إحدى المحاور القريبة، وبسرعة تجرد عبدالوهاب وأحد زملائه من سلاحهما وعصبا رأسيهما كمزارعين مسالمين وأخذا يتسللان من الجبل على السهل حتى إذا أشرفوا على المعسكر رأيا قوماً قادمين يتقدمهم شيوخ يمتطون خيولاً فخمة وخلفهم رجلاً يحمل على ظهره طبلاً ضخماً يسير خلفه رجلان يقرعان الطبل قرعاً إيقاعياً، بينما يسير خلفهما عدد من الرجال يحمل كل واحد منهم طبلاً صغيراً يقرعه بإيقاع يناسب الطبل الكبير، بينما يتبعهم الرجال الآخرون بين فارس وراجل ويتجهون جميعاً إلى وسط المعسكر يتقدمهم علم أبيض ارتسم عليه صليباً أحمرا.

أدرك عبدالوهاب أن هذه قبيلة جاءت لتقدم الولاء للباشا، ولكنها تبدو من القبائل الهامة، ولا بد من معرفتها والرجوع بالخبر، فنزل مفارقاً صاحبه إلى حيث اصطف أناس يشاهدون هذا العرض الذي يندر مثله بين قبائل العرب وسأل الناس من حوله من يكون القوم؟ فقال أحدهم:

- إنهم قبيلة بني شهر.

كانت العرب تفتخر بالأعلام التي تستولي عليها من أعدائها وقد تتخذها علماً لها أمام الناس تذكيراً بإنجازها الحربي، وقد كان هذا العلم

الذي أمام القوم علم بريطاني قديم استولت عليه القبيلة، حينما كانت مع الأمير على بن مجثل حينما استولى على السواحل اليمنية 1248هـ-1833م وكان العلم لمقر البعثة التجارية البريطانية في ميناء المخا. ولا يعني لهم رمزه شيئا.

انسحب عبدالوهاب وصاحبه من الموقع بهدوء حتى إذا تواروا عن أنظار الناس انطلقوا إلى إخوانهما خلف منازلهم الطبيعية وأخبروهم بالخبر، فاطمأنوا وأكملوا استعداداتهم لليلة جهنمية سيشارك فيها معهم عدة فرق من جهات مختلفة.

وبعد انتظار طويل وتحت ضوء قمر اليوم العاشر من الشهر أخذ الشباب يستعدون للانطلاق بعد أن يختفي القمر خلف الجبال الشاهقة، وبالفعل بدأوا يقتربون من ثلاثة محاور شرقية جنوبية وشرقية وشمالية حتى إذا تكاملوا وصاروا أقرب ما يكون للجبهات المتقدمة أطلقوا نيرانهم بغزارة على المعسكر بصورة عشوائية قذفت الرعب في صفوف الجيش الذي هرع أفراده إلى التحصن والاختباء.

كانت أنفس المهاجمين تزداد حماساً وحيوية كلما سمعوا صراخاً أو جلبة، بينما دخل بعضهم بين الجيش وجعل يضرب في الظلام بسيفه أو بخنجره أو برمحه، وفي حاله فوضى شديدة صاح الباشا بأوامره إلى الرجال بالاستعداد للحرب، ثم أمر بإحراق بعض البيوت في القرية لإضاءة مكان القتال، وما أن ارتفعت ألسنة اللهب مرسله أشعتها إلى الساحات

والطرقات حتى ذاب المهاجمون وراء الوادي والشعاب، وتراجع الجنود في سباق مع الخوف من كمائن قد تظهر لهم بين سواد الأشجار وظلال الخرائب.

*****

وقع الباشا القائد في حرج كبير، فقد أدرك أخيراً بأنه قد تورط إلى حد بعيد في هذه الحرب، فالجيش يعاني من الجوع، بينما بدأت ذخيرته في تناقص شديد، والعدو لم يتوقف عن حربه في شكل عصابات شرسة أقضت مضاجعهم ولم تمكنهم من النوم في سلام خلال الأيام الماضية، وجبال عسير وعرة إلى حد كبير يصعب مطاردة المهاجمين فيها ويسهل اختباؤهم خلفها، وبقاء الجيش مدة أكثر يعني هلاكه جوعاً.

ومن وعده بالتموين قد تأخر عنه، فمشيط أمير الخميس الذي استعد بتموينه عربوناً للهدنة، حينما رأى أن الجيش بدأ ينهار لم يرسل التموينات له، وكذلك حذا حذوه الآخرون من زعماء القبائل.

وضربوا على الجيش حصاراً اقتصادياً أخلّ بالقوة التي كانت تدك المنطقة دكا.

كانت الخيارات المطروحة أمام الباشا سيئة للغاية فالتراجع سيغري القبائل على الانقضاض على الجيش المتهالك الذي لا هم لأفراده إلا تأمين لقمة العيش للبقاء على الحياة ولو باعوا أسلحتهم وجميع عتادتهم.

كان أفضل رأي طرح للباشا هو عقد صلح مع الأمير عائض لضمان انسحاب الجيش بأمان، لكن الرأي كان مطروحاً قبل أوانه بالنسبة للباشا والشريف.

فالقبض على عائض أو هزيمته وإخراجه من حصونه قد تجعل حظوظ الصلح أكثر قوة وفائدة لهما ولو أمام محمد علي فقط.

*****

في مساء ليلة اليوم التالي أي في اليوم الحادي عشر أشيع أن الباشا أصدر أوامره بالتحرك صباحاً إلى مكان الأمير عائض وأمرهم بالاستعداد بصنع الطعام من الخبز فقط..

جاءت الأخبار إلى المقاومين أن الجيش قد يهجم على معقل الأمير عائض. فأرسلت إلى قائد المجموعات الذي أمر بحشد مجموعات كبيرة من المقاتلين، حتى إذا ارتفعت الشمس في كبد السماء استطاعوا أن يطوقوا المعسكر، وبعد الساعة الواحدة اشتبك المقاومون مع الجيش وأطلقوا ذخائرهم في المعسكر الذي أتخذ الجنود فيه متاريس صغيرة ليحتموا فيها.

ولما قربت ذخائر العسيريين من النفاد انسحبوا بسرعة إلى الجبال، ولم يعد عند الجيش شجاعة كافية لأن يلاحق المهاجمين خشية أن يكون هناك كمين يقضي على الملاحقين.

بعد انتهاء المعركة نظم الباشا صفوف جيشه وشجع قادته الذين انطلقوا يزحفون بجحافلهم على ضفة الوادي نحو (السقا) الذي يقع في أعلى الوادي، وهي قرية صغيرة فيها حصون منيعة ومنازل وحدائق مغلقة.

فلما وصلت الفرقتان إلى القرية أصدرت الأوامر بإطلاق النار عليها بغزارة، فبادلهم العسيريون النار بالمثل، ولكن تفوق الجيش أرغمهم على الخروج من حصونهم وتسلق الجبال شديدة الانحدار ليتمنعوا بها، ويحاربون من فوقها، حاول الجنود أن يتتبعوهم لكنهم عجزوا عن تسلق الجبال بعد أن أصبحوا معلقين على أعراف الخيول..

كانت الأوامر قد صدرت إلى فرقة عبدالوهاب ومن معه من المقاتلين الذين انسحبوا بعد معركة الظهر بالتمركز في موقع خلف الصخور والأدغال، والبقاء كقوة احتياطية لا تتعامل مع العدو إلا بأمر من القائد، لكن ثابتاً وسعيد بن محي انخزلا عنهم بعد أن اتفقا على الاتجاه نحو البيت الذي فيه الأسرى، فسعيد يعرف القرية، وسوف يعرف البيت بسهولة هناك.

انطلقا بسرعة إلى الحقول من الناحية الغربية فخبئا فرسيهما بين البساتين وأقبلا لا يحملان من السلاح إلا الخناجر في أوساطهما، وقد خبآ بندقيتيهما، وبينما هما يسيران في ظل الجدران خائفين يترقبان، إذ قابلتهما عجوز قد ضمّر الدهر عودها وأسقط ثناياها، وجعّد جلدها، ترفل في ثوب أسود قد حزمته من وسطه، وعصبت رأسها بمنديل أحمر.

تحمل بين يديها حملاً صغيراً، فاستوقفاها.

فزعت منهما وقالت بصوت عالٍ وقد على الخوف وجهها:

- ماذا تريدان مني أيها البدويان؟!

قرب منها سعيد وقال بصوت خفيض:

- أرجوك يا خاله .. اخفضي صوتك نحن من قومك.. من عسير.

خفضت العجوز صوتها وقالت:

- ماذا تريدان؟

قال سعيد:

- أين بيت أحمد بن مرعي؟.

حركت مقلتيها بسرعة يمنة ويسرة وقالت بصوت منخفض:

- الذي فيه الأسري؟

خفق قلب ثابت وقال مستعجلاً:

- نعم يا خالة .. أين هو؟

فمدت ذقنها نحو أحد البيوت وقالت:

- هو ذاك .. لكن .. لكن يحرسه بعض العسكر الأشداء.

ضيق سعيد عينيه مبتسماً وقال:

- وهل تسدين لنا معروفا يا خالة؟

تهلل وجه العجوز وشدت من وجهها وأوسعت في عينيها، وقالت متحمسة:

- معروف؟!.. يسرني ذلك يا بني.. ماذا تريداني أن أفعل؟

فقال ثابت:

- نريدك أن تشاغلي الحراس حتى نخلص الأسرى أو بعضهم.

ابتسمت العجوز وقد علت على وجهها مسحة ثقة عجيبة، ثم جالت النظر بعينين ثاقبتين في الشابين وقالت بصوت منخفض:

- يا لكما من شجاعين.. إنني أحب الشجعان أمثالكما .. أبشرا سأشاغل الحراس، ولكن انتبها فلديهم بنادق تقتل من بعيد.

قال ثابت:

- سنتوكل على الله..

- إذن .. أرأيتما ذلك البستان المقابل؟

قال ثابت:

- نعم.

- أدخلا فيه وراقباني من خلال الصدوع التي في أعلى الجدار فمنها ستريان باب البيت، وعندما يصيح الحمل ارجعا إلى البستان وسيروا إلى أخره نحو هذه الجهة، ثم أصعدا الجدار الخلفي لفناء بيت الأسرى وستجدان باباً صغيراً في الجهة الخلفية من البيت، فإذا وجدتما أحداً من الحراس فلا تطلقا رصاصاً، وإنما عليكما بالخنق والطعن، والله ينصركما.

أحمر وجه ثابت فرحاً بالخطة.. وقبل رأس العجوز. لكن كلمتها:

- بنيّ.. أدعوا لي بالرحمة.

سببت له غصة في حلقه فقال:

- لا تخافي يا خالة فلن يقتلوا امرأة.

ضحكت العجوز وقالت:

- لا يهم .. إنني أعرف إنهم همج وبرابرة، ولكن حياة الشباب لحماية الديار خير من حياة العجائز.

قال ثابت:

- جزاك الله خيراً يا خاله، والله انك خير من مائة شاب.

انطلقت العجوز إلى جهة باب بيت الأسرى، بينما هرول الشابان من تحت الجدران إلى البستان فتسلقا الجدار ثم هبطا وسارا بين أشجار الخوخ إلى حيث يريان باب بيت الأسرى من بين الصدوع، بينما أقبلت العجوز تنادي الحراس.

- يا مصريين .. يا جياع .. هل تشترون الحمل السمين؟

ضحك أحد الجنود وقال يمازحها:

- وما هذا الحمل الصغير الذي لا يسمن ولا يغني من جوع؟! أين أمه يا عجوز؟

أخذت تهزأ بالجندي وتمازحه وهي تضحك بفم قد تساقطت أسنانه وتقول:

- وهل وجدت ما يسدّ الجوع حتى تسأل عما يسمن؟!

صاح جندي آخر من عند الباب وقال لصاحبه:

- لقد أفحمتك العجوز يا نجيب..

ثم وجه حديثه لها قائلاً:

- كم تبيعينه يا خاله؟

فقالت:

- إذا تريد تشتريه .. تعال انظر إليه قبل أن أخبرك بثمنه.

قرب الجنديان منها ونظرا إلى الحمل وهو في يدها وجعلا يجسانه، فأخذت تمازحهما بالحديث حتى تجمع عندها عدد آخر منهم ثم قالت وكأنها بلهاء:

- انه يصيح.. ونشيط.. والله يصيح .. اسمع.

ثم عضّت أذن الحمل بفكين أملسين لا أسنان فيهما، فصرخ الحمل من الألم.

سمع الشابان صوته وضحكات الجنود، فانطلقا خارجين من البستان، عابرين السبيل الضيق، ثم تسلقا جدار سجن الأسرى من الخلف بسرعة فائقة.

كان الحراس لا يتوقفون عن المزاح ومشاكسة العجوز ويشاركهم بعض زملائهم من النافذة العليا.

أما عدد الأسري فكان لا يتعدى العشرة، إذ أفتدي أكثر الأسرى من قبل ولم يبق إلا من رأى الباشا أو غيره من القادة بقاءه، وكان بين هؤلاء التعساء مبارك الذي تمسك به شيخ من قومه بأمر من الباشا لأمر ما.

دخل الشابان بسرعة خاطفة إلى البيت المكون من ثلاثة طوابق من الطين.

كان السلم مظلماً قليلاً.

وفجأة قابلهم أحد الحراس يضحك وهو نازل ليشارك زملاءه في الخارج مزاحهم مع العجوز.

لم يتبينهم حتى انقض عليه سعيد بسرعة فامسك بحنجرته فخنقه حتى ذبل ثم أسقطه على الأرض، بينما تابع ثابت صعوده ثم تبعه سعيد.

ولما وصلا إلى المجلس الذي فيه الأسري، أشار إليهم سعيد بالسكوت، ثم بسرعة قطعا الحبال التي كانت في أرجلهم فقاموا بتثاقل لطول مكوثهم مكتفين، أما مبارك فقد أحتضنه الشابان ثم نزلا به بسرعة يدافعان الأسرى، ويساعدانهم للهروب.

أقبل أحد الحراس صاعداً السلم وهو لم يشعر بما حدث، فقابلوه في الظلام وبسرعة انقض عليه سعيد فضربه على هامته ببندقية صاحبه الأول، ثم أسرعا إلى خلف الفناء، فحملا مباركاً فوق الجدار ثم صعدا معه وأسقطاه، لكن أثناء ذلك جاء حارس ثالث فأطلق النار عليهما فأصاب ثابتاً في وسطه وساقه.

كان الحماس أقوى من الشعور بالألم، فقد هبط من الجدار وأخذ بيد مبارك من جهة ولم يشعر الآخرون بإصابته.

بل انطلقوا بسرعة إلى الخيل فرحين بنجاح العملية.

انشغل الحراس عنهم بمن أدركوا من الأسرى.

في منتصف الطريق وقبل وصول المكان الذي فيه الخيل بدأ ثابت يشعر بالألم والذي ضخمه صيحة فزع من سعيد انتبه ثابت إلى خاصرته فإذا الدم قد أغرق جانبه الأيمن الذي تحت الحزام.

أبى ثابت إلا أن يواصل السير إلى الخيل، لما وصلا شق سعيد ثوب ثابت فوجد رصاصة قد اخترقت خاصرة صاحبه واستقرت فيها، وأخرى قد ثقبت عضلة ساقه، فربطهما بعمامته بسرعة ثم أركبه حصانه وأمر مباركاً أن يركب فرسه هو ويهرب بثابت إلى (تندحة) .

تردد الاثنان فأقسم عليهما إلا أن يذهبا ويدعاه فليس لهما من النجاة إلا بذلك، أما هو فإنه سيعود من حيث أتى على أقدامه إلى عبدالوهاب ومن معه، وسيحصل على فرس من أي أحد ولو كانت فرس الأسير المربوطة في القرية، ثم عاد بعد أن ضرب الأفراس، ودعا لهما.

*****

لم يعد أمام الجيش عدواً يقاتله ففرح الباشا بنصره على عائض، فأمر بالانسحاب وما أن سمعت القوة الاحتياطية العسيرية قرعة الطبل الأولى التي تأذن بالانسحاب حتى صدرت لهم الأوامر بالهجوم المباغت، وكانت المفاجأة الصاعقة للباشا حينما رأى الرجال يخرجون من خلف الصخور

والأدغال وهم يصبّون عليهم جام غضبهم بوابل من الرصاص، فأمر - بسرعة - فرقة تتعامل معهم ليغطوا انسحاب الفرق الأخرى التي أصابها الارتباك الشديد، وبدءوا يفرّون من أرض المعركة بغير انتظام، حتى أن الكثير من فرسانهم قد ترجلوا وأخذوا يهرولون على أقدامهم الحافية يطلبون النجاة إلى أن وصلوا إلى المعسكر وهم يلهثون، وقد فقدوا منهم أعدادا كبيرة جداً لم يكونوا يتوقعونها.

*****

كان ثابت ومبارك قد تجنبا السبل المطروقة حتى وصلا إلى قرية (جوحان) - وهي قرية تقع بين خميس مشيط وأبها - ثم أخذا الطريق المعهود متجهان إلى الغرب لكن الإعياء بدأ يظهر على ثابت الذي كان قد أرخى بطنه على سرجه، فأخذ مبارك بعنان فرس صاحبه وهو يواسيه ويشجعه ويشد من عزمه، إلى أن وصلا إلى قرية (حجلا) وفيها بدأ ثابت يفقد وعيه، فاتجه به إلى أحد البيوت وطرق الباب، كان أهل البيت أكثر حذراً، لكنهم حينما تأكدوا أن الذي عند الباب صديق لا عدو، أسرعوا في فتح الباب ثم هرع من في البيت من الشباب مع أبيهم الشيخ فحملوا ثابتاً إلى فراش بجانب النار.

أخذ الشيخ يحمي سكينه على النار حتى احمرت ثم اسودت ومبارك ينظر إليه بألم يعتصر قلبه فهو يعرف أن تلك السكين ستنغرس في خاصرة بطله الذي انتقم له مرة وأنقذ حياته مرة أخرى.

رفع الشيخ بصره في مبارك وفي فتيان أمامه وأشار لهم أن يمسكوا بثابت، كان ثابت يغط في إغماءة طويلة، لكن الحارة حتماً ستوقظه.

رفع الشيخ ثوب ثابت وستر عورته ثم استعد الشباب فأمسكوا بثابت وما أن انغرس رأس السكين المقوسة في اللحم حتى أفاق وصرخ صرخة مكتومة أعادته إلى إغماءته مرة ثانية.

أخرج الشيخ الرصاصتين على عجل ثم حشا مكانهما بُنّاً محمصاً.

كانت الليلة طويلة جدا على مبارك الذي أخذ يساهر صاحبه، أما ثابت فكان لا يفيق حتى يعود في إغماءته.

في الصباح وبعد أن عاد المضيف مع مبارك من صلاة الفجر، أخذ مبارك يلح على المغادرة، حتى فشل المضيف في إقناعه في المكوث ولو لمدة يومين حتى يستطيع ثابت أن يتحرك.

قام الشيخ إلى بعيره فشد عليه نعشاً ثم أنزل ثابتاً مع مبارك وابنيه شدوه عليه. ثم ركب الشيخ على حصانه مرافقاً إياهم، ثم انطلق معهما إلى (تندحة).

لم يتعرض أحد لهم بسوء إلا أن سؤال الناس عن المنعوش جعلهم يوزعون الكذبات والتوريات حتى زالت الشمس وأشرفوا على (تندحة).

كان ثابت يعاني من آلام جنبه إلا أن معنوياته كانت مرتفعة جداً،

بل لقد كان جذلاً بوفائه بوعده لسارة التي عاهدها على أن ينقذ والدها من الأسر.

حينما بانت القصور الشاهقة وأشجار السدر السامقة أخذ العسيري صاحب البعير ينشد بصوته الشجي أناشيد النصر والكرامة، ورغم الحروب المتعاقبة عبر السنين بين القبائل المتجاورة - كما هو عادة القبائل العربية - إلا أن قبيلة عسير وقبائل (تندحة) في تحالف ومودة عبر السنين، وحينما يطلق هذا الرجل هذه الأهازيج فإنه سيحرك - بلا شك - شجون السامعين مفتخراً بشهامته، مادحاً لثابت شجاعته، ومطمئنا أهله بسلامته.

سمع الناس هذه الأهازيج فخرج الرجال على خيلهم يستقبلونه مستفسرين مرحبين، وبالطبع وكان بين الرجال المستقبلين الشيخ منصور.

ولما دنى الركب صاح فيهم الشيخ منصور متسائلا:

- ما الخبر؟! عسى خير يا مبارك؟

وبعبرة خانقة قال مبارك وهو ينفث الكلمات نفثاً:

- الحمد لله .. ثابت مصوب صواب بسيط وهو بخير .. والله انه بخير.

كانت كلماته الأخيرة ممزوجة بعبرات باكية.. لكن الشيخ كان أقوى

وأكثر صبراً فقال بصوت عال:

- الحمد لله على السلامة .. وسلامتك أنت يا مبارك عندنا أهم من سلامة ثابت.

تألم مبارك لسماع ذلك كثيراً فهذا الرجل الكريم قدم الكثير له عبر سنين طويلة وأخيراً قدم ولده فداءً له.

لقد أنب نفسه كثيراً خلال عودته على أنه سبب إصابة ابن ولي نعمته وجاره، ولكنه القضاء والقدر الذي تربى الناس آنذاك على الرضاء به في السراء والضراء.

كان ثابت يسمع كل هذا لكنه كان يصارع الألم بنوبات نشوة النصر والأمل بما سيجده من مديح سيغرقه أمام القاصي والداني.

وصل الموكب إلى ساحة القرية وبرك البعير والتف الرجال حوله وكان ألصقهم له الشيخ، فلما تكامل بروك البعير أقبل على ابنه فقبله في جبهته قبلة كادت تحرقها.

كانت ابتسامة ثابت عريضة جداً لا يفضحها سوى التعب والإعياء، لكنه كان يقبل بوجهه الباسم هذا على كل من يقبّله ويكلّمه.

أقبل الرجال على العسيري فشكروه وبالغوا في شكره كثيراً وهنئوا مباركاً بسلامته أكثر، ثم أقبلوا جميعاً إلى البيت الذي يسكنه الشيخ مع

من معه، وثابت محمول على النعش حتى أنزل في فراشه، وكم كانت الأقدار عجيبة فمرقده بعد هروبه الأول كان هو مرقده بعد هروبه الثاني وليس بينهما إلا بضعة عشر يوما.

كان لقاء مبارك بابنته سارة وزوجته وابن أخيه معبراً جداً، اختلط فيه بكاء الفرح لنجاة أبيهم ببكاء الحزن على جرح ثابت البطل..

*****

في ضحي اليوم الثاني وبينما كان كل من الطرفين يلعق جراحه تسللت المجموعة التي فيها عبدالوهاب وسعيد بن محي إلى الجهة الشرقية من العدو لكن طلائعه رأوهم فانطلقت صفارة الإنذار، وأصدر الباشا أوامره إلى كتيبتين للتصدي لهم، وما أن اقتربت الكتيبتان حتى أمطرها العسيريون بوابل من الرصاص، وتبادل الجيش معهم القتال، واستطاع العسيريون أن يصيبوا الكثير من الجيش لتحصنهم وانكشاف عدوهم لهم، ولكن قبل أن يتمكن المقاومون من شحن بنادقهم استطاع الجيش بغزارة رصاصه أن يرغمهم على الانسحاب.

غفل سعيد بن محي عن انسحاب رفاقه فمكث مكانه يقاتل القوم ولم يتمكن من الإسراع في الهرب مع البقية فيما تأخر في شحن بندقيته مستعجلاً. لكن رصاصة عاجلت يده فأصابتها في ذراعه فسقطت بندقيته. صرخ سعيد من الألم وبينما هو يحاول الهرب إذ ضربه فارس من العدو بالبندقية في ظهره فهوى من على الصخرة، همّ

عبدالوهاب أن يرجع لإنقاذ صاحبه لكن خاله تشبث به وعقّله من التهور فالعدو قد سيطر على الموقع.

واصل عبدالوهاب هروبه مع أصحابه إلى أعلى الجبل وهناك توقف وجعل ينظر إلى صاحبه بقلب تقطعه آلام الحزن والخوف فالأعداء شرسون، وانتقامهم لا يعرف الرحمة.

ترجّل الجندي من فرسه إلى سعيد لعله يريد أن يجهّز عليه وسعيد منكب على وجهه ويداه تحته يمسك اليسرى باليمنى من الألم، وما أن ركله الجندي برجله وبندقيته في يده حتى انقلب على ظهره وأرسل خنجره إلى لبة ذلك الجندي فأرداه قتيلاً، ثم انقض إلى عنان فرسه وقفز عليها بسرعة فائقة لكن الأجل كان أقرب من الهرب إذ انطلقت رصاصه أحدهم فأخترق جمجمته فأردته قتيلاً أمام ناظري صديق عمر ه.

انحط ظهر عبدالوهاب وكاد قلبه ينفجر غيظاُ على قاتله، ولولا أن خاله الذي أمسك بطرف ثوبه وذكره بالله عز وجل وبالرضا بقدره، وانه هو وغيره في هذا القتال معرضون للموت في أي لحظة لانخرط منحدراً نحوهم فقاتل حتى قتل، ولكنه أسلم صدره للنشيج بعيداً عن أسماع الرجال.

انسحب الطرفان إلا عبد الوهاب الذي بقي مكانه يراقب صاحبه الطريح حتى إذا أظلمت بسدول الليل جيء له بفرس فهبط إلى صاحبه مع معاونيه فحمله وهو يتلمس وجهه ويديه، ويبكي بحزن شديد، حتى

دفنه رحمه الله.

*****

كان مقتل سعيد بالنسبة لعبد الوهاب مصيبة وأي مصيبة، فرغم الموت الذي يراه كل يوم إلا أنه لم يعتقد لحظة بأنه سوف ينزع روح صديقه العزيز.

أظلمت الدنيا في عينيه، وصب جام دعاءه الحار على هذا العدو القاسي الذي قتل أباه صغيراً ثم عاد ليقتل صديق عمره كبيرا، لقد كان سعيد صديقه الصدوق، وخليله الذي لا يفارقه.

وكلما حامت ذكرياته مع سعيد وثابت اعتصر قلبه ألم ممض وتمنى أن ما حدث كابوسا ثقيلا سيزول قريباً.

وكذلك فان تذكره لإصابة ثابت تجثم على صدره المكلوم من حين إلى حين، وتمنى لو انه يستطيع أن يعرف شيئاً عنه ولكن كيف له بذلك وهو على هذا الحال، الناس يقولون: إن النصر قاب قوسين أو أدنى. لكنه بمقتل سعيد أصبح اليأس يسيطر على تلابيب الرجاء عنده، وتخيل أن هذا الجيش الذي قتل البطل الشجاع القوي سعيداً، يستطيع أن يحكم قبضته على هذه البلاد العنيدة التي لم يقدر عليها أجنبي من قبل.

وبقي عبدالوهاب يجترّ آلامه مع مجموعته، يغير حينما يغيرون ويعود حينما يعودون، واجماً لا يعرف للنصر طعماً ولا للانهزام خيبة،

يحمل أحزانه في قلبه ويرتقب القدر القادم ولا يدري بمن سيصاب قريباً بعد أن فارق سعيداً..

وبينما هو بجسده مع رفاق الكفاح في مجلس ضاق بالمحاربين وبنادقهم، وهم يتناوشون الآراء ويخططون لهجوم مباغت جديد إذ دخل رجل عليهم قد تهللت أساريره وقال بعد السلام:

- بشير وأريد البشارة.

فصاح بعضهم.. بصوت المتفائل:

- أبشر بالبشارة .. ما وراءك؟

- لقد طلب الباشا أخيرا بحث الصلح مع الأمير عائض..

فقال أحد الحاضرين:

- صلح على ماذا؟.

- على الانسحاب طبعا. سوف يعودون من حيث جاءوا.

تعالت أصوات المقاتلين بالتكبير حتى ضجت بهم جدران المنزل، ولكن رجلاً بسيطا بين الرجال، قال بصوت حزين:

- ينسحبون هكذا قبل أن نشفي غليلنا منهم بعد أن قتلوا إخواننا

وأهلينا؟ والله لن نتركهم ينسحبون حتى ترتوي أرض عسير بدمائهم.

فقال شيخ في طرف المجلس:

- يا بني .. إذا صلح الأمير معهم وأعطاهم الأمان فليس لأحد أن يعتدي على أحد منهم، قتلوا من قتلوا وقتلتم من قتلتم وسوف تقابلون جميعاً رباً عادلاً يحاسب الجميع على دماء أهدرت، وحرمات هتكت. الله أكبر كيف يفرح أحدكم بقتل رجل يقول: لا إله إلا الله.

ثم غمغم وسكت.

حينما سمع ثابت الرجل الذي أنكر الصلح همّ أن يؤيده لكنه ألجم بكلام الشيخ الذي علق عليه الباقون بالتصديق والاستغفار والحوقلة فخنقته العبرة وخشي أن تظهر عليه معاني البكاء أمام الرجال فنظر من خلال النافذة إلى الفضاء وقلبه لا يزال يغلي كالمرجل.

*****

استطاع العسيريون أن يفرضوا شروطهم على الباشا الذي خارت قوى جيشه الجائع، والذي لم يذق طعم الراحة والأمان منذ أن وطأت قدماه عسير.

كانت هذه الاتفاقية نصر كبير للعسيريين ومن معهم، فرح بها الناس فرحاً شديداً رغم الحنق الشديد الذي رافق ذلك الفرح لأولئك الذين لم

تشف صدورهم للانتقام لأقاربهم الذين قتلوا ومُثّل بهم نتيجة للأساليب الهمجية التي انتهجها الغزاة.

وبعد فجر اليوم التالي والذي سيبدأ العدو فيه بالانسحاب وبينما كان عبدالوهاب يمتطي فرسه يسير بها إلى الشمال وينظر إلى الغزاة وقد أخذوا يسيرون في صفوف متراصة على إيقاع الطبول والمزامير نظر إليهم نظرة قاسية صاحبتها زفرة كادت تحرق فؤاده حنقاً عليهم وقال بصوت لا يسمعه إلا هو:

- لا ردّكم الله .. وسلط عليكم جنداً من جنده..

ثم انطلق بفرسه مسرعاً نحو الشرق إلى أمه الحبيبة وصديقه المصاب إلى تندحة.

*****

14

منذ أن وصل ثابت إلى تندحة وهو يعاني من أعراض الحمى التي هجمت عليه بسبب جرحاه الغائران رغم علاجهما بما هو متوفر بين أيدي الناس بأدوية محلية، حتى أنه صار يهذي بما يحب ويكره، وكان أكثر ما يسمع منه نداءه المتواصل لسارة، مما أحرجها كثيراً أمام أهله وأهلها، لكنه كان لا يزيد على النداء.

وكلما زاره أقاربه من النساء كانت تأتي سارة معهم إلى وتجلس قاصية ولكنه يراها وتراه.

كانت النساء يشجعنه على الأكل أو الجلوس أو تناول الدواء، أما هي فإنها منذ أن تدخل إلى أن تخرج صامتة محدقة فيه لا تنبس بكلمة.. لكنها كانت تخاطبه بفؤادها الحزين، تضغط على مشاعرها لئلا تزيده ألماً ومعاناة. وهي تعلم يقيناً بأنها لو نطقت فلن تستطيع أن تتحكم في بكائها.

كانت كل زيارة لها يزداد حبه لها واحترامه الشديد لاحتشامها، إذ أنها لا تدخل عليه بزينة أو تبرج، بل تتحاشى أن تثير كوامنه التي تعلم يقيناً أنها تشارك مشاعرها بحب لا يمكن وأده مهما فرضت العادات

قيودها ونصبت التقاليد حواجز الزواج بينهما.

وفي ضحى اليوم الذي انسحبت فيه جحافل الغزو إلى الغرب كان الشيخ منصور يتناول القهوة مع مبارك وعدد من الرجال أمام فراش ثابت الذي عادة ما يأنس بمن حوله إلا حينما تجثم الحمى عليه، وفجأة سمع دوي بندقية في إحدى الشعاب الغربية القريبة من القرية فالتفت بعض الرجال من خلال نوافذ البيت المرتفع، وصاح بعضهم:

- إنهم قوم.. إنهم هاربون، لعلهم قتلوا أحدا.. أحداً من الجماعة.

نزل الرجال إلى الأسفل بسرعة فائقة وامتطوا ظهور خيولهم وقد حشوا بنادقهم، وانطلقوا خلف الرجال وفي طريقهم ومروا بالشعب الذي رأوهم خارجين منه فوجدوا الصبي عامر ابن أخ مبارك طريحاً مضرجا بدمه وقد اخترقت رصاصة كبده، فواصل الفرسان مطاردة الهاربين، وكان من بين الراجلين مبارك فلما رأى ابن أخيه انحط عنده وأخذ يقلبه ويبكي ويصرخ.

وما أن أشرف الفرسان على شعب آخر حتى رأوا عبدالوهاب واقفاً ممسكا بعنان فرسه وبين يديه رجلا مصاباً في فخذه، وقد أحكم اللثام على وجهه.

سألوه عما حدث فأجابهم وهو يلهث:

- لقد أصبت هذا الرجل، أما الباقون فقد هربوا، وابتعدوا كثيراً وقد

لا تلحقوا بهم.

واصل بعض الرجال مطاردتهم للهاربين أما الشيخ منصور فقد ترجل عن فرسه وأماط لثام الجريح بقوة عن وجهه، فإذا هو يرى ما لم يكن في الحسبان.

إنه جوهر الجزار بلحمه وشحمه، وقد شحب لون وجهه وبدت عليه غيوم الخوف والخجل والألم. فركله الشيخ في فخذه المصاب وصاح فيه:

- ما الذي صنعته يا عبد السوء؟.. لماذا قتلتم الطفل البريء؟

طأطأ جوهر رأسه وقال بصوت متهدج:

- أنا لم أقتله .. هؤلاء الذين هربوا هم الذين قتلوه ثأراً بينهم وبين مبارك.

فصاح فيه الشيخ أخرى قائلاً:

- قبحكم الله من أنذال .. ألم تجدوا إلا هذا الصبي؟!

ثم سحب عمامة جوهر بقسوة ثم شقها نصفين ثم أمره أن يربط فخذه بإحداهما، وقد كانت إصابته في اللحم ولم يصب العظم بسوء. ثم ربطت يداه بحبل وجعل طرفه في يد الشيخ. ثم عادوا قافلين إلى القرية يجرون جوهراً معهم.

وفي طريقهم وجدوا النساء والأطفال وبعض الرجال قد تجمعوا عند الصبي المسكين الذي يحمله عمه بين يديه وهو يذرف دمعه عليه، فلما رأى جوهراً مربوطاً يركض خلف فرس الشيخ منصور ذهل وصاح مخاطبا القوم:

- هل القاتل هو جوهر؟

ثم بسرعة أسلم الطفل لرجل بجانبه ثم سل خنجره وأقبل على جوهر وهو يقول:

- سأقتله.. سأقتله.. والله لأقتلنه.

صاح الشيخ منصور في مبارك وقال:

- إياك أن تفعل يا مبارك.. لم يكن هو القاتل.. وهو الآن في وجهي.

أحجم مبارك وأسقط الخنجر من يده ثم جلس منحطاً لا يدري ماذا يفعل .. بينما اتجه الرجال يحملون الطفل إلى المنزل على نياح النساء وضجيج الأطفال.

كان بين النساء اللائي ينتظرن عند الأبواب أم عبدالوهاب التي ما إن رأت ابنها بين الفرسان حتى هرولت باكية فرحة بمقدم ابنها سالماً.

حينما رأى عبدالوهاب أمه ترجل عن فرسه واستقبل أمه التي انخرطت في البكاء، واحتضنته وهي تقبله بحرارة فأخذ يقبل يديها

ويربت على ظهرها ويهدئ من انفعالها.

في الجهة الثانية علا صراخ زوجة مبارك وأبنتها سارة حينما رأتا الفتى مضرجاً بدمه، لكن الناس لم يمهلاهما كثيراً لمعاينته بل أخذوه إلى المنزل القريب حيث سجي هناك وأسلم لامرأة من القرية تغسله وتكفنه.

أما جوهر فقد ربط إلى سارية المسجد ومعه من يحرسه حتى صلى الناس عنده الظهر ثم أقبلوا عليه يتحققون من أمره.

قال الشيخ منصور:

- من قتل الصبي يا جوهر..؟

- رجال لا أعرفهم.

- فلماذا كنت معهم إذاً؟

- أنا لست معهم.. لقد كنت هارباً حينما رأيتهم قتلوا الصبي وخشيت أن أتهم به لكن عبدالوهاب رماني فأصابني.

صاح فيه عبدالوهاب وقال:

- كذبت.. لقد سمعتكم وأنتم مقبلون فاختبأت بفرسي خلف الصخرة، ورأيتك وأنت تشير إلى الصبي وتقول لأحدهم: هذا (عامر ابن أخي مبارك). فأطلق أحد الرجال النار عليه ثم هربتم، وكنت معهم

فأطلقت النار عليكم فهربتم، ثم لحقت بكم مرة أخرى وأنا أشحن بندقيتي، ثم رميتك فأصبتك قبل أن أعرفك.

نظر جوهر في عبدالوهاب بحدة وهو يدلي بالحقيقة فلما انتهي عبدالوهاب من حديثه طأطأ جوهر رأسه وهزه مشعراً أسفه وندمه.

قال له مبارك وهو مكور قبضته:

- قاتلك الله أيها اللئيم هل وصل بك الانتقام والحقد إلى هذا الحد؟ تدلّ على قتل طفل لم يتعد الحادية عشر من عمره.

أشار الشيخ منصور إلى مبارك بيده أن اهدأ، ثم قال لجوهر:

- من الرجال الذين قتلوا الطفل؟

- إنهم غرماء لمبارك .. جاءوا مع الجيش وعلموا أن مبارك يعيش هنا فبحثوا عنه فدللتهم.. هذه الحقيقة واصنعوا ما بدا لكم.

قال الشيخ:

- هل يعني هذا أنني عندما قابلتك قبل أيام كنت تتجسس لتعرف المكان؟!.. كم كنت خسيساً نذلاً.. قد قيل لي أن غناك إنما هو من دلالتك على الناس لطالبي الثأر الذين يقتلون من قابلوا من أهل القاتل بدون تمييز.. يا لك من خبيث.. سوف ترى عقابك إن شاء الله.

قام مبارك وقد أصفرّ وجهه من الغضب. وقال:

- أرجوك يا عم منصور دعني أنتقم منه فأبرد ما بجوفي من جحيم.

صاح به الشيخ وقال:

- لا يا مبارك .. دمك ليس عنده ولكن جزاءه في الدنيا سيناله إن شاء الله وافياً من الأمير مشيط نفسه ثم يوم القيامة سيوفيه الله الجزاء الأوفى.

ثم التفت الشيخ إلى جوهر وقال:

- ولكن قل لي.. من هم الذين قتلوا الغلام؟

- لا أعرفهم لكنهم يقولون أنهم من جماعة مبارك ويقولون إن اسمه مسفر.

قال الشيخ:

- وهل ذكروا لك عن أصل مبارك وقومه؟

- نعم.. قالوا: إنه ليس جزاراً بل من رؤوس جماعته.

التفت الرجال بعضهم إلى بعض. وقد رغب الشيخ أن يعلم من حوله حقيقة مبارك لأمر في نفسه خاصة بعدما كشف أعداؤه أمره

وانتهى الأمر بقتل الصبي ربما،

ثم أنه علم من زوجته تعلق ابنه الشديد بابنة مبارك وتعلق سارة به، وقد كان الشيخ يسمع ثابتاً حينما تنتابه غيبوبة الحمى ينادي دائماً: سارة.. سارة. لذلك كان إيضاح حقيقة مبارك سيجعل من السهل خطبة سارة لابنه بالرغم مما سيعرضه من لوم من غيره في مجالس العذّال.

عاد الرجال الذين كانوا يطاردون القتلة وليس معهم أحداً، وهم يقولون: لقد فقدنا أثرهم ولعلهم أخذوا مسالك لم نتبين فيها أثراً لحوافر الخيل.

*****

كان عبدالوهاب منذ وصوله وفي زحمة الناس وهول المصيبة يسأل كل من يقابله عن حال ثابت فمنهم من يقول: أنه بخير. ومنهم من يقول: إنه مكروب. ولم يكن الوقت ليسمح أن يذهب إليه قبل أن ينتهي من التحقيق مع جوهر حتى إذا انتهى ذلك وحبس جوهر في أحد البيوت ليقاد إلى الأمير مشيط فيما بعد. قام عبدالوهاب على عجل، ودخل المنزل الذي فيه ثابت وهرول مسرعاً على درجات السلم حتى إذا دخل على ثابت وهو على فراشه شعر به ثابت فالتفت نحوه وهو عند الباب ثم قال بصوت ضعيف وكأنه صاعد من قعر بئر:

- عبدالوهاب مرحبا بك .. الحمد لله على سلامتك.. أين سعيد..؟

أنقض عليه عبدالوهاب وجثا على ركبتيه وجعل يقبل رأسه ثم أنخرط يبكي عند رأسه وهو يتلمس وجه صاحبه ويقول:

- لا باس يا صاحبي لا بأس.. ليتني كنت أنا مكانك وجعل البكاء يتصاعد .. وعبرات ثابت تزيد من ضغطها على حنجرته.. وهو يقول:

- أرجوك قل لي: أين سعيد؟ أين سعيد؟

وكلما سمع عبدالوهاب هذا السؤال زاد بكاؤه ويقول:

- سعيد بخير.. سعيد بخير.. المهم أنت .. كيف أنت؟

كانت كلمات عبدالوهاب مرتبكة متخلخلة، يزيدها ارتباكا بكاءه المتواصل، كما أن نظراته المنكسرة التي يعرفها ثابت حق المعرفة تفضح كذباته .. فأهتز جسد ثابت المتهدم وسرت فيه قوة خافية لم تكن من العافية في شيء، فطوى ذراعيه تحته ثم أستعد للجلوس وصاح في عبدالوهاب:

- أجلسني.. أجلسني.. يا ولد هيا.

فأجلسه عبدالوهاب ثم أسنده إلى الجدار، فأخذ بتلابيبه وهو يبكي ويقول:

- هل أصاب سعيد مكروه؟ قل لي الحقيقة. لا تكذب علي أرجوك.. أرجوك.

حاول عبدالوهاب أن يتشجع ولكنه أنهار أخيراً أمام شدة بكاء صاحبه فقال وهو يشاركه البكاء:

- لقد قتل سعيد.. قتل شهيداً إن شاء الله.

صاح به ثابت في صاحبه:

- ماذا قلت؟ .. أنت تكذب أليس كذلك؟

- لقد قتل سعيد يا ثابت هذا قدر الله.. كنا في غارة ولما داهمتنا خيل العدو تأخر وهو يشحن بندقيته فأدركوه وقتلوه. رحمه الله، أرجوك لا تجزع وارض بقضاء الله وقدره.

أسند ثابت جمجمته على كفه الصفراء ثم قال بصوت مخنوق مبحوح:

- إنا لله وإنا إليه راجعون..

ثم سكت وجعل ينازع صدره الذي أخذ بتشنج يصعد ويهبط.

استوى عبدالوهاب في جلسته أمام صاحبه وقد اشتد احمرار عينيه، لكن الهدوء أخذ يسرى في نفسه بعدما أخبر صاحبه وهو الذي كان يحمل همّ نقل الخبر إليه، لم يكن عبدالوهاب لينهار من البكاء هكذا لولا أن رأى صاحبه على هذه الحال وهذا السؤال. وكذلك لم يكن ثابت بهذا الضعف عند فقد حبيب لولا هذا المرض الذي أضناه وأبعده عن رفيق

دربه في مواصلة حربهما للعدو، وكان آخر ما رآه وهو ينقذه ويؤثره على نفسه.

نظر ثابت إلى عبدالوهاب وقال:

- ما هذا الصياح الذي سمعته قبل قليل.. ماذا حدث..

- ماذا أقول لك؟ سأخبرك فيما بعد.

- لا .. بل أقسم عليك أن تخبرني بالحقيقة الساعة، إني أجد أن المصائب أخذت تتوالى علينا نسأل الله أن يكتبنا من الصابرين.

- لقد قُتل عامر ابن أخي مبارك وقبض على جوهر وهو يدل القتلة.. لقد قتلوه ثأراً من مبارك.

بدأت سحابة الحزن تغطي ما تبقى من وجه ثابت الهزيل البائس. وقال:

- إنا لله وإنا إليه راجعون.. نسأل الله لأهله الصبر والسلوان ارتاح من هذه الدنيا البائسة، ليتني سبقته قبل أن أسمع مقتل سعيد.

ثم غمغم وغطى وجهه بكفيه قليلاً وعبدالوهاب ينتظره، ثم قال عبدالوهاب وكأنه يذكر ثابتاً أن الخير في عطائف الشر:

- وقد اعترف جوهر نقلاً عن غرماء مبارك أن مباركاً من رؤوس

جماعته أمام الناس.

ليس خبر أصالة مبارك جديدة على ثابت فقد كان يعلم ذلك ولكن ما الفائدة؟ فقد أصبح اليأس من السلامة يدب في أركانه، وزاد حزنه الشديد على سعيد من يأسه واسوداد الدنيا في عينيه، ولكنه أراد أن يستفهمه فقال:

- ماذا يعني هذا يا صاحبي؟

- أعني قد يكون في ذلك فرجاً.

تنهد تنهدة كادت تخرج فتات كبده وقال:

- وما الفائدة يا عبدالوهاب وأنت ترى ما أنا عليه .. إن رسل الموت تزورني يوماً بعد آخر.

- لا تقل ذلك وتوكل على الله.. فأنت إن شاء الله بخير.

تنهد شديداً ثم قال:

- آه ليت سعيد معك لأراه قبل أن أموت.

ثم خنقته العبرة فما ستطاع أن يكمل حديثه الذي كاد أن ينطق به.

دخل الشيخ منصور ومعه بعض الرجال، ومعهم مبارك الذي بدت

عليه آثار المصيبة وقد تلثم وطأطأ رأسه حزنا على ابن أخيه.

سلم الرجال على الشابين وتهلل وجه الشيخ حينما رأى أبنه جالساً فقال:

- الحمد لله.. ما شاء الله.. أنت بخير إن شاء الله.. نعم صاحبك قد..

ثم أنتبه وقال لعبد الوهاب.. مقاطعاً حديثه الأول:

- ولكن أين سعيد يا عبد الوهاب؟

كانت أسارير عبدالوهاب قد انفرجت لما رأى الشيخ يحمد الله على رؤية ابنه جالساً لكنه حينما عطف بالسؤال عن سعيد، تغير وجهه واغرورقت عيناه وقال:

- لقد قتل يا عم .. لقد قتل.

ثم خنقته العبرات..

صدم الشيخ بالخبر، فوقف برهة وهو يجيل النظر تارة في ثابت وتارة في عبدالوهاب، ثم أطرق قليلاً والتمس أقرب مكان فجلس وطأطأ رأسه وهو يعالج أحزانه ثم قال موجهاً سؤاله إلى عبدالوهاب:

- ومتى قتل يا بني؟

- قبل يومين يا عم.

تنهد الشيخ وهو ينظر من خلال النافذة ويقول:

- إنا لله وإنا إليه راجعون .. لله ما أخذ ولله ما أعطى.

وبعد فترة صمت حزن من الجميع .. قال الشيخ لعبد الوهاب:

- وما هي أخبار القوم؟

- انسحبوا اليوم من عسير إلى تهامة.

- ماذا؟! .. انسحبوا؟ كيف؟!

انتبه الرجال كلهم، وكان أكثرهم انتباها وإصغاء مبارك المكلوم.

أجاب عبدالوهاب على سؤال الشيخ قائلاً:

- أبرموا صلحاً مع الأمير عائض، ولكنهم لم يطلبوه إلا بعدما أصليناهم برصاصنا وماتوا جوعاً وخوفاً وسهراً.

ارتفع صوت الحضور بالتحميد والتهليل والتكبير وظهر عليهم السرور. قال الشيخ:

- وعلى أي شيء تم الصلح؟

- لا أعلم.. ولكنهم انسحبوا نحو الغرب برفقة حرس من قبل الأمير عائض. وسنعرف إن شاء الله بنود الصلح قريباً. والحمد لله، نسأل الله أن يعيد على البلاد الأمن والأمان.

*****

15

انقضت أيام على رجوع الناس إلى ديارهم إلا الشيخ وأهله الذين حبسهم في تندحة مرض ثابت، وبينما كان مبارك يلملم نفسه بين الخوف والحزن والهرب في النهار إلى الجبال، بعد صلاة العصر همس في أذن الشيخ وهما خارجان من المسجد.

- أريد أن أتكلم معك على انفراد.. أرجو أن تهبط معي إلى الوادي.

قام الشيخ واتجه مع الرجل إلى حيث يريد وجلسا على بطحاء الوادي.

ولما استقرا التفت مبارك في كل اتجاه وكأنه يخشى أن يسمعه أو يراه أحد ثم قال بصوف خفيض:

- أنت ترى ما وصلت إليه الحال، وإني أخشى أن يعود هؤلاء فيقتلوني على غرة.

- لماذا؟! لقد قتلوا عامر وانتهى ثأرهم.

- إنهم قتلوا عامر بواحد، أما الآخر فلا بد أن يأخذوا ثأره مني أنا.

- لكن الآخر قتل لقتله أخيك.

ظهرت على شفتي مبارك ابتسامة مُرة وقال:

- لا.. فهم يرون أن دم أخي مباحاً. فهم يظنون بأنه قتل وهو يستحق القتل.. لفعلة فعلها - كما يظنون - وهو برئ منها.

أطرق الشيخ وأخذ ينبش الرمل بعود في يده ثم قال:

- عليك أن تأخذ حذرك ولا تفارقني حتى يأذن الله بالفرج.

تنهد مبارك وقال:

- لكن العدو غدار كما رأيت، ولا تعرف من أين يأتي.

نظر الشيخ إلى مبارك قليلاً ثم قال:

- فما رأيك؟

- أرى أن أغادر إلى بلاد بعيدة.. وأواصل رحلتي إلى المجهول بحثاً عن النجاة التي أظن أنني لن أدركها.

نظر الشيخ إليه بعين العطف وقال:

- حسبناً الله ونعم الوكيل.. إلى متى يبقى هذا الجهل والخوف والضلال.. ولكن متى تريد أن تذهب وإلى أين؟

- أما متى؟: فلا أدري ولكن قبل أن ترحلوا إلى خميس مشيط. أما إلى أين؟: فسأتجه إلى الشرق سراً حتى أجد أهل خير ونجدة فأحط عندهم.. أسأل الله العون والتوفيق.

- ولكن بقي لك أرضاً ومالاً في خميس مشيط ماذا تصنع بها؟

- إن شئت أن تشتريها فافعل .. وأن لم ترغب فبعها فيما بعد وأحفظ قيمتها حتى أرسل لك من يحضرها، والأمارة بيني وبينك جلوسنا الآن والشجرة اليابسة تلك.

بدت سحائب الحزن تجلل وجه الشيخ ثم نظر إلى جاره بعينين أسيفتين وقال:

- فليحمك الله.. ولكن ما رأيك لو ذهبت لوحدك حتى تجد مكاناً آمناً ثم تعود وتأخذ زوجتك وابنتك؟ وأرى أن تبقى أملاكك أمانة عندنا حتى تتهيأ الظروف لعودتك.. فإن مع العسر يسراً، ولا تدري ما الذي سيحدث غداً.

- أخشى أن تكون العودة صعبة علي، وعلى كل فلدي صديق يزورني كل ما جاء إلى خميس مشيط وهو في بلدة (جاش) وسوف أذهب أولا عنده ثم أرى رأيه.

كان الشيخ يحادث جاره لكن فكره كان مشغولا بابنه المسكين الذي تعلق بابنة الرجل تعلقاً شديداً، وقد يكون لسفره بابنته أثراً خطيراً على صحة الشاب المريض بل قد يهلك من جراء ذلك.

إنه معجب جدا بسارة ويرغب كثيراً أن تكون حليلة ابنه، لكنه كثيراً ما يتردد في هذه الرغبة خشية أن يكون الزواج وصمة عار عليه وعلى ابنه من الصديق قبل العدو، فمبارك لا زال عند غير أهل تندحة جزاراً لا يمكن أن يتزوج قبيلي بابنته.

قام الشيخ والأفكار تتصارع في عقله، ثم قال لمبارك:

- توكلنا على الله، من الآن وحتى نغادر إلى خميس مشيط سيأتي الله بالفرج.

*****

في هجعة الليل ومع سماع أنين ثابت جلس الشيخ منصور مع زوجته يتحادثان في طرف المجلس الذي يضطجع فيه ابنهما النائم. قال الشيخ لزوجته هامساً:

- وبعد أن علم الناس أن مباركاً ليس جزاراً، ولن يرجع لهذه المهنة

البتة.. ما رأيك لو خطبنا سارة لثابت؟ هل تعتقدين أنه لن يصيبنا عار بذلك الزواج؟

نظرت المرأة إلى زوجها ثم قالت:

- الناس هنا عرفت من هو مبارك، ولا بد أن ينتشر خبره في خميس مشيط وغيره.. ولكن.. أنت ترى حال ثابت .. إنه مريض جداً.

- لا بأس .. لعلنا لو عقدنا له عليها يفرح بهذا ويستعيد نشاطه ويتماثل للشفاء. المشكلة أن مبارك سيغادر قريباً

ثم التفت نحو ثابت وقال:

- اعتبري أن هذا سر وما أعهدك تفشين لي سراً.

شهقت المرأة وقالت بصوت منخفض:

- ماذا؟ يغادر إلى أين؟ ولماذا يغادر؟ لو يغادر مبارك وسارة فسوف يقضى على ثابت .. أنا أعرف ذلك، لقد تعلق قلبه بها كثيراً.

- إذن علينا أن نزوجه بالفتاة قبل أن يغادر أبوها بها.

قالت المرأة:

- دعنا نسأل ثابتاً عن رأيه فلربما له رأي آخر.

- لا بأس.. غداً عندما يفيق.

- ولم غداً؟ خير البر عاجله. أنظر إليه هناك.. ألم تر أنه يساهر النجوم من خلال النافذة؟

- إذن قومي إليه.

قامت الأم وهي تتنحنح بهدوء وقد رسمت على وجهها ابتسامة لا ترى في ضوء القمر الذي منح الغرفة شيئاً من النور الخافت حتى إذا التصق قدمها بفراش ثابت التفت إليها وكأنه شبح وقال لأمه بصوت ضعيف:

- أمي.. مرحباً بك .. لماذا لا تنامين؟

تظاهرت بالضحك وجلست بجانبه ووضعت يدها على جبته الساخنة ثم قالت:

- الحمد لله.. يبدو أن السخونة قد انخفضت.. أنت بخير إن شاء الله يا ثابت .. أليس كذلك؟

- بلى .. أشعر كذلك إن شاء الله.

بالغت في ابتسامتها وهي تنظر في عينيه التي قد أشتد البياض بياضاً والسواد سواداً. ثم قالت:

- عندي لك خبر سار جدا يا حبيبي.

- وما هو يا أماه.. أرى أن الأخبار السارة لم يعد لها مجالاً هذه الأيام.

ثم غصته العبرة.. وكاد يبكي.. ولكنها وضعت كفه اليمنى بين كفيها.. ثم قالت:

- لا .. بل هناك أخبار سارة وعظيمة..

ثم سكتت برهة تنتظر منه شيئاً إلا أنه بقي ينتظر منها الكلام فاستأنفت حديثها:

- ما رأيك في سارة؟

فاجأته أمه بسؤالها الذي لم يكن في الحسبان ففغر فاه بعدما قال:

- هه.. سارة .. ما شأنها..؟.

فقالت:

- ما رأيك فيها.. أتريدها حليلة لك؟

ارتعشت أطرافه وسرى فيها دبيب غريب ..

لم يجمع قوى تركيزه فالمرض قد أنهكه، والمفاجأة أكبر من أن

يتحملها.

أحجم عن الكلام قليلاً وشد أصابعه الهزيلة على كفي أمه.. ثم نظر إلى شبح أبيه هناك في أقصى المجلس الطويل وهو ينظر إليه بقرب شعاع القمر المتطفل من النافذة .. ثم أعاد النظر إلى أمه وقال بصوت مرتج:

- ولم هذا الكلام الآن؟ أتظنين أني رجل يصلح للزواج وأنا على هذه الحال؟ إني أرى أنني..

ثم خشي أن يخيف أمه فسكت والعبرات تخنقه

كانت كلماته تقطع نياط قلب أمه لكنها تصبرت وقالت:

- لا يا بني إنك بخير وستتماثل للشفاء إن شاء الله.. أريد أن أراك عريساً في القريب العاجل إن شاء الله.

تنهد تنهده كادت توقف أنفاسه ثم قال:

- من الآن حتى أن أشفى (سيحلها الله) .

- ولكن ألا تريد أن تأتيك سارة وتخدمك وتسلم عليك كل حين؟

انفرجت أساريره وقال:

- بلى .. ولكن..

- إذن لا يمكنها أن تفعل ذلك إلا إذا عقدت عليها..

غمغم ثم رفع لحافه على وجهه وجعل يبكي بصوت خاف. خنقت العبرة أمه ورفعت الغطاء عن وجهه وقبلت رأسه وقالت بصوت متهدج:

- لا تبكي يا بني العزيز سيشفيك الله.. وتتمتع مع زوجتك قريباً إن شاء الله..

عاد الشاب إلى فرحته الممزوجة بالحسرات وغطى رأسه وقال بصوت أختلط بالبكاء:

- اصنعوا ما شئتم.

قامت المرأة من عند فلذة كبدها حزينة قد أخذت العبرات تكبت على أنفاسها، ثم جلست بجانب زوجها الذي كان يسمع ما يدور بينهما. وأدارت المشورة معه.

*****

في فرجة من الوقت خطب الشيخ ابنة مبارك لابنه ثابت ففوجئ مبارك بهذا الشرف الذي لم يكن يتوقعه يوماً.

طأطأ مبارك رأسه، وقال:

- أخشى يا عم منصور أن أقول لك: إنني لا أستطيع قبول هذه

الخطبة.

عقد الشيخ بين عينيه وقال مستفسراً:

- ولماذا يا مبارك أقصد يا مسفر؟

- لأن فضلك علي سابغ، والناس لا ترحم فلا أحد يعلم بخبري إلا أهل تندحة، وقد يعير ثابت بزواجه هذا، وأن لا أرضى لثابت ولا لك وأنتم أهل نعمتي، ولا أرضى أيضاً أن تكون سارة في موطن ضعف.

تضاحك الشيخ وقال:

- يا أخي مسفر..

فأشار مبارك للشيخ راجياً:

- أرجوك يا شيخ لا تسميني إلا باسمي الذي يعرفه الناس وتعرفونه..

فقال الشيخ مبتسماً:

- يا أخي مبارك أنت جارنا.. وأنت شيخ من شيوخ ربعك.. وما خفي اليوم يظهر غداً.. وبنتك أصيلة وكل يتمنى أن تكون زوجته.

أطرق ثابت وهو يعبث بالرمل بين يديه .. ثم رفع بصره إلى الشيخ

وقال:

- وماذا عساني أن أقول فأنت أبوها وأبوي و...

ثم خنقته العبرة.

ما أن عاد مبارك إلى البيت حتى أخبر زوجته وهو يرتعش خوفاً من المصير .. زواج ابنته يعني فراقها.. وربما يطول الفراق .. فالعزم إلى الشرق وتبقى هي هنا في بلاد شهران .. وربما لن يراها مرة أخرى إذا ساءت الظروف.

تقبلت الأم الخبر بشيء من القبول بل والاستحسان، فهي ترى أن ثابتاًً أفضل زوج لها، ومكوثها عنده يريحها من مواصلة الهرب معهما، وهؤلاء الأنساب كرام لن يخذلوهم يوماً، ولربما عادوا إليهم مرة أخرى. فالقلب تعلق كثيراً بهذه الديار.

جاءت أم سارة إلى ابنتها تزف إليها الخبر وهي تشك في قبولها بهذا الزواج، ولما سألتها عن رأيها. لم تتمالك سارة نفسها فبسرعة احتضنت أمها وقالت:

- ماذا تقولين؟.. هل خطبني الشيخ لابنه فعلاً؟

فوجئت أمها بهذا الفرح، فالشاب مريض مرضاً قد لا ينجو منه، وحالتهم غير مستقرة.. فقالت لها لتعرف حقيقة موافقتها:

- نعم يا بنيتي.. لكن ثابتاً مريض..

- ولو كان كذلك.. سيشفى إن شاء الله.. أنا أشعر بذلك سيشفى.. سترجع إليه عافيته.. ادعي الله له بالشفاء يا أمي.

كان قلب أمها مقبوضا جدا، فالشاب مريض ومعرض للموت في أي لحظة، لقد خشيت على ابنتها المسكينة أن تحد قبل أن تعرف معنى الزواج ولكنه قدر الله.

كان رد الفتاة واضحاً، وليس لأمها إلا أن تبلغه أباها الذي استقبل الخبر على نقيضين من الشعور.

في المساء أضيئت المصابيح في الغرف المزدحمة ووضع بعضها في السلم ليضيء للمدعوين لحضور وليمة عرس شاب طريح الفراش على غيدا طالما أضناها الحزن على مرضه والشوق إلى القرب منه على سنة الله ورسوله.

كانت أنوار المصابيح الضعيفة ترسم على محيا الشاب الهزيل صورة بائسة تثير الشفقة، فرغم أنه يعيش حالة من الحبور لم يعشها منذ زمن إلا أن ذلك الفرح لم يستطع أن يرسم على وجه الشاب هيئة تسر الناظرين، فالوجه الحسن قد زالت فيه كل آلات التعبير من لحم ودم، لكنه يشعر بأنه قد سرت في دواخله رسل الحياة، ونبضت فيه آيات الأمل الغائب.

أما سارة فقد عاشت لحظات ذهول تهيمن عليها دقات قلب يضخ الدم إلى دماغ عجز عن التركيز، وإلى وجنات توردت لتفضح الفرح العجيب.

عقد القران على دقات طبول قلب ثابت الضعيف الذي أخذ يزف الحياة إلى أطرافه وكأنه لن يموت ما دام أن سارة أصبحت زوجته له.

حينما بدأ المدعوون يخرجون، وكانوا يهنئون بقلوب يشوبها الشك في حقيقة التهنئة التي سيعقبها قريباً عزاء والله أعلم.

أما عبدالوهاب الذي من فرط حبه لصاحبه لم يداخله الشك بل لم يسمح لخياله أن يذهب إلى التفكير بسوء. هنأ صاحبه قبل أن يغادر وفر شدقيه مبتسماً لصاحبه وهو يهز كتفيه براحته وهو يقول:

- مبروك يا صاحبي .. إنها أول العافية إن شاء الله.. قريباً سنرى طفلاً تسميه..

فقاطعه ثابت مكملاً:

- سعيد.. نسميه سعيد إن شاء الله، هذا إذا كان في العمر بقية.

غادر المدعوون وبقي الأهلون في حيرة وارتباك، وكانت سارة أكثرهم ارتباكاً وأشدهم انفعالاً، لم تسعها الفرحة بمغادرة الناس وقرب انصراف الأهل إلى فرشهم، فكم تمنت أن تأتي يوماً إلى ثابت فتسقيه ماء زلالا

وتجلس بجانبه تسامره وتطوي ليله بما ينفس عنه من حديث يخفف آلام حماه، وبالفعل هجع الناس وانصرف أهل البيت كل إلى فراشه حتى الشيخ منصور الذي انشغل كثيرا بمعرفة شعور أبنه، هل هو سعيد أم حزين؟

أقبلت أم ثابت وأم سارة تصحبهما العروس وفي يدها قدح من الماء وقد علا الخجل كثيراً على محياها، لكن الفرح طغى على الخجل فليس من أمر ثابت ما يخجل الآن.. ودخلت النسوة الثلاث إلى حيث ينطرح ثابت فسلمت أمه وأم سارة عليه، وقد أظهرتا فرحاً وسروراً طاغيا.

كان وجهه قد بدا تألقه، فقد استجمع قلبه أكثر ما فيه من الدم وضخه إلى صفحة ذلك الوجه الهزيل فظهرت عليه علامات الحياة.

سُرّي عن أمه حينما رأت فتاها يظهر ابتسامة سرور يمكن فهمها، وكانت نظراته تتجاوز أمه إلى عروسه التي أخذها الارتباك والشوق فلا تدري أتسلم أم تحجم، أتقول لا بأس أم تسكت؟ أتمد الماء إليه؟ أم تسقيه بنفسها؟

جلست أم ثابت ثم تبعتها أم سارة أمامه لكن سارة بقيت واقفة كأنها تنتظر أمرا من أحد. فضحكت أم ثابت وأمسكت بطرف ثوبها وسحبتها إلى أسفل وقالت:

- أقعدي يا حبيبتي .. لا تخجلي.. لقد أصبحت زوجته؟

خفق قلب ثابت عندما سمع هذه الكلمة، في الوقت الذي اضطرب فيه قلب سارة اضطراباً كاد يغشيها.

جلست سارة وأنزلت الماعون أمامها وأبقت رأسها مطأطأ وهي لا تكاد أن تركز بعدها في شيء ألبته.

قالت أم سارة لثابت:

- مبروك يا بني .. إننا إنما زوجناك لأنك فارس شهم وشجاع ولن نرد لكم معروف كنتم قد أسديتموه لنا .. وكم من وقفة شجاعة وقفتها مع عمك مبارك، لقد أنقذت حياته.

وفي حديث معاتبة على المعروف والاعتراف لم يميزه ثابت وسارة فقد كانا يسرقان النظر إلى بعضهما البعض، بابتسامات تزينها أشواق المحبين.

انتهت زيارة المرأتين فأخذت إحداهما بيد صاحبتها وقالت أم سارة للعروسين:

- سوف نترككما..

ثم وجهت أم سارة الحديث لابنتها:

- حذاري أن ترهقي ثابتاً يا ابنتي.. إذا أراد النوم فقومي إلى فراشك.

زاد خفقان قلبي العروسين العاشقين وزاد ارتباكهما، كان الضوء

الخافت في أعينهما زهوراً من نور تتلألأ في أرجاء الغرفة وكأنها تتراقص فرحة بلقاء محبين كان اليأس آخذ بزمامه.

عقب خروج المرأتين فترة زمنية حرجة.. لم يسيطرا على مشاعرها الفياضة التي بدأت تطفح بالسرور الجامح على ملامحهما.

جعلت سارة تلملم أطراف ثوبها متشاغلة في الظاهر بشيء ما، لكنها بكل حواسها المتوترة منتبهة إلى ردة فعل ثابت الذي أخرجها ونفسه من الدوامة حينما قال بصوت هادئ:

- وأخيراً يا سارة تحقق الحلم .. ما كنت أظن يوماً أن يجمعنا سقف واحد بمفردنا.

أرادت سارة أن تتكلم، لكن الحرج والحياء والفرحة جثمت على لسانها فألجمته، وحاولت أن تتحدث بشيء لكن صوتها وئد قبل أن يصل مسامعه، فمد يده نحوها وقال:

- سارة .. زوجتي العزيزة .. هلا أسقيتني ماء من الذي معك..

ارتعشت يدها اليمنى التي أخذت القدح ثم مدته إليه، وهي تنظر إلى الأرض، فضحك وقال:

- يبدو أنك لا تريدين أن تسقيني. سأدعو أمي لتسقيني بنفسها.

رفعت نظرها إليه وقالت بسرعة

- لا .. لا .. لا.

ثم سكتت وابتسمت خجلة وقد اتسعت عيناها وقربت بحذر.

ضحك ضحكة هزيلة أخرى ثم قال:

- أذن هيا اقتربي واسقيني أرجوك.

قامت من مكانها واقتربت منه وقلبها يخفق بشدة، بينما كان قلب ثابت يضطرب حتى خشي على نفسه، أسندت رأسه بيدها اليسرى في أول مرة يلمس عضو منها شيئا من جسده منذ أن كبرا وصارت تتحجب منه، ثم وضعت طرف القدح في فيه باليمنى، ولما بدأ يشرب من الماء وضع يده الهزيلة على ظهر كف عروسه.. فارتعشت يد سارة بينما أهتز قلبه وسرت فيه نبضات حية .. فعب من ألذ ماء شربه حتى ارتوت عروقه، ثم عادت إلى مكانها تنظر إليه مبتسمة بخجل.

كانت هذه الشربة إكسير للحياة عنده، فقد أغمض عينه وأسند رأسه إلى الجدار وهو يقول:

- آه ما أحلا الحياة معك يا سارة.

ابتسمت له وهزت رأسها وكأنها تقول له وما أحلاها معك، وأخذت تحادثه بحياء شديد لكن الحديث لم يتعد أهل الدار والقرية وأخته نوره، وفيما هو يطارحها بعض كلمات الغزل كانت تهرب حياء من ذلك

الحديث وتقحمه في الحديث عن الأهل، ولكنه سألها قائلاً:

- لقد أعطيتك أمانة أين هي يا تري؟

ضحكت بخجل وقالت في الحفظ والصون، ثم أخرجتها ببطء من جيبها، أنها الخرقة التي أعطاها إياها من عمامته.. ثم قالت بصوت ناعم خجول لا يكاد يبين:

- وأين أمانتي أنا..

فقال لها مازحاً وقد حاول أن يقطب بجبينه المعروق مستفهماً:

- وما هي أمانتك؟

تغيّر وجهها الذي لا زالت آثار البسمة تزيدها حسناً.

ضحك وقال:

- أتعنين هذه؟

ثم أخرج الخاتم وقطعة الخمار من تحت وسادته، فطفح السرور على وجهها.

وبعد مضي ساعة، وقفت أمها على الباب المفتوح وقالت:

- سارة لقد أطلت كثيراً على ثابت .. إن السهر سيتعبه كثيراً يا

بنيتي.

ظهر الحياء والحرج على وجه سارة، فقد لاحظ ثابت ذلك في وجهها فآلمه كثيراً، لقد خشيت أمها بالفعل أن تكون بسهرها معه قد أضرت به، أما ثابت فقد كانت لكلمات أم زوجته المفرقة وقعاً مؤلماً في نفسه، فهذه الليلة هي أولى لياليه مع محبوبته، وقد همّ أن يرفض خروجها لكنه استحى.. فطلب منها أن تمدد في وقت الزيارة، لكنها ألحت على خروجها، مراعاة لحاله.

قامت سارة تحث الخطى خارجة بينما سمع هو وداع أم زوجته وقلبه يغلي غيظاً عليها.

*****

في الصباح وبعد شروق أجمل شمس رأتها سارة، وقد أخذت الحياة تلبس أجمل الحلل في عينيها، فهي لم تعلم بعد بقرار مغادرة أهلها. وتعيش فرحة زواجها بحبيب طالما سكن فؤادها وعشعش حبه في أركان قلبها، تلهبه مخافة الحرمان أو تحرقه فروقات العادات، وتصليه نظرات مكشوفة وعبرات وزفرات ملتهبة.

كان العريس يغط في نوم عميق لم يذق لمثله طعماً منذ أن لازم فراشه، تراوده الأحلام السعيدة وتتنفس عليه نسمات الصباح من النافذة بأجمل أريج أستنشقه منذ أن قدم إلى تندحة.

أما سارة فقد خرجت تصيح في البنات فرحة مسرورة، تأمرهن بصحبتها إلى البئر لجلب الماء في القرب، وكان أقربهن إليها نورة أخت ثابت وابنة خالها، وبإلحاح سارة المستمر خضعن للخروج معها قبل أن ينهين أعمالهن، وقد حملن في أيديهن القرب وهن يداعبنها، ويقلن لها:

- ألأنك عروس وفرحانة فلا تريحينا؟!.

كانت سارة تضاحكهن وقد انتشرت المسرة في جوانحها، تطير بجناح الفرح وكأنها عصفورة أغواها طيب النسيم.

كانت البنات يتغامزن أمامها ويتعجبن عما هي فيه من السرور، لكنها كانت لا تأبه بتعليقاتهن الساخنة وهي تنظر إلى الزهور وكأنها تضاحكها وإلى الأغصان وكأنها تداعبها، كان لشدو العصافير في آذانها طرباً ولأصوات بكرات الآبار عزفاً..

أخذت طريق غير طريق البئر المعهودة القريبة مشيرة لهن إلى بئر هي أبعد وأتعب، لكن ماؤها أرق وأعذب؟ لن تسقى حبيبها إلا منها ولن ترويه إلا زلالاً طيباً هو يحبه كثيراً..

وتحت إلحاحها أطاع البنات أمرها وساروا معها فرحين لفرحها مسرورين لسرورها الذي غلب.

كانت نورة تضحك حيناً وتتجهم حيناً آخر. تذكرت أخاها طريح الفراش. وهل سيبقى ليعيش مع هذه الحسناء التي اختارته وشغفت به

وتزوجته وهو على هذه الحال؟

. كانت أيضاً متعجبة لحركات سارة التي أخذت تتعدى المألوف عنها، فهي من قبل رزينة ثقيلة، تفرض احترامها كثيراً على البنات، وتنتزع إعجابهن بل وحسد أكثرهن، لكنها اليوم غير سارة الأمس التي أصابها الحزن والوهن منذ أن أسر أبيها ثم قتل ابن عمها ثم مرض ثابت.

ولما أقبلن على البئر تسابقت البنات على الدلو، فكانت سارة أسبقهن إليه فأخذته وبنشاط قالت:

- سأملأ لكن اليوم قربكن.

صاحت إحدى البنات تمازحها:

- يعني هل هذا هدية زواجك؟ لا يا حبيبتي يجب أن تقدمي لنا شيئاً آخر.

أخذت سارة الدلو وأومأت به عليها لتضربها لكن الفتاة هربت ضاحكة.

أخذت سارة تملأ قرب البنات قبل قربتها وهي تصرخ فيهن ليفتحن قربهن ولا يهدرن الماء الذي تعبت فيحاولن أن يأخذن دورهن في سحب الدلو لكنها كانت ترفض فهي - فعلاً - تعتبر ذلك هدية لهن بمناسبة زواجها.

وسحبت وسحبت، وذات مرة انحنت لتسحب الدلو القريب وقد أعياها التعب فزلت قدمها. وكان ثقل الدلو أقوى منها فسحبها بسرعة إلى البئر فهوت إلى وسطها تتلاقف جسدها الغض أنياب حجريه قاسية كانت تبرز من جدران البئر المطوية، أمام ذهول وصراخ الفتيات الضعيفات لم تمهلها الحجارة حتى أسكنتها في قعر البئر حيث غاصت في لجة الماء.

ارتفع صياح البنات:

- سارة سقطت في البئر .. سارة سقطت في البئر.

سمع الناس صراخهن فأقبلوا من البيوت والمزارع، وكان ثابت أسمعهم، فنهض نهضة من فراشة وجعل يصارع أوهانه، يترنح بين الجدران التي أخذت تتلاقفه. لا يدري أسارته التي سقطت أم سارة أخرى، لكنها بالتأكيد سارة..

ونزل السلم ولم يكن هناك أحد حوله، فقد خرج الساكنون إلى حيث الصراخ، ونزل إلى الشارع والدوار يحوم في رأسه، يقوم ويجلس متجها إلى البئر المنكوبة لكن رجلاً أدركه فعرفه، فأسرع فحمله بإبطيه وأخذ يعاتبه:

- ما الذي أخرجك يا بني..

فأشار ثابت بيده للرجل وهو يلهث ويقول بصوت لا يكاد يسمع:

- أدرك سارة.. أرجوك .. سارة سقطت في البئر.

فقال الرجل وهو يهدئ من روعه:

- لا عليك .. إنها سالمة إن شاء الله، الناس كلهم هناك. اهتم بنفسك.

لم يستطع ثابت أن يقف على رجليه مرة أخرى فأراد الرجل أن يحمله على ظهره، فأبى إلا أنه يجلسه في ظل جدار بستان حوله ليسند ظهره إليه ثم يرقب ما الذي سيأتي من البئر.

كان قلب ثابت يخفق خفقانا شديداً وهو ينظر بعينين ذابلتين إلى حيث ينتهي الطريق، بينما جلس الرجل بجانبه يذكره ويواسيه وهو لا يسمع منه ولا ينظر إليه.

صرخت بعض البنات اللاتي كن مع سارة، بينما أخذ الذهول بعقل نورة التي ابتعدت من الناس قليلاً، وجلست خائفة وجلة تنتظر ما سيأتي به القدر وعما سيسفر عنه إخراج سارة الحبيبة.

وخرجت سارة محمولة من البئر وقد غطت الدماء كل جسدها وتدلت خصلات شعرها الفاحم الطويل وهو يتصبب دماً وماء أحمر. وحملت على الأكتاف، وهم يرفعون أصواتهم بالتهليل والدعاء، أما المشيعون فمنهم من يقول: (بأنها ميته) ويتحسر على شبابها. ومن الحاملين من يقول: (إن قلبها لا يزال ينبض) وبين تلك العبارتين أخذ

اليأس والرجاء يصطرعان في قلب نورة الغض وهي لا تكاد أن تقف على قدميها..

أقبل الجمع إلى برحة الحارة وكان أمامهم شبح ثابت الواقف والمتكئ على الجدار قد اتسعت حدقتاه فيهم وهو يشير بيديه الهزيلتان ولم يستطع أن يتحدث.. لكنه لم يستطع أن يصمد أمام رؤيته دماء سارة التي كانت تغطي جسدها، فانحط إلى الأرض ولم تحمله قدماه المتهالكتان فتقدم إليه اثنان من الشباب فحملاه إلى فراشه وهما يصبرانه ويهونان عليه.

طرحت سارة على فراشها في الغرفة المجاورة لثابت، وقدمت لها إسعافات أولية بدائية، بينما كانت في غيبوبة تامة وفي حالة حرجة، فقد تحطمت جمجمتها ونزفت.

لم يكن الشيخ منصور ومبارك في القرية وقت وقوع المصيبة فقد غادرا مبكرين إلى خميس مشيط ليتدبرا أمر أموال مبارك هناك، لكن أم ثابت أرسلت إليهما ليقبلا إلى أمر هام.

استحكم الحزن الشديد على أهل القرية، وأخذوا يجتمعون حول البيت المصاب وكل يدعو الله عز وجل أن ينجي الشابين المصابين.

اجتاح ثابتاً حزن شديد كاد يقتله لكنه سمح لدموعه أن تنهمل بغزارة ما قد ينفس من برحاء قلبه ويخفف من أثقال كربته. ليكمل في

آخر كل ليل توجعه وأنينه الذي لا يعلم سامعيه هل هو يجتر آلام قلبه أم يصارع آلام جسده؟

وبعد أسبوع أسود من الليل البهيم، وأثقل من أطنان الحديد، وبينما كانت نورة تساهر جسد سارة الثاوي وتخاطب قلبها بقلبها في آخر الليل، إذ حركت سارة يدها قليلاً فصاحت بأعلا صوتها فرحة:

- لقد حركت يدها .. لقد حركت سارة يدها.

أقبل كل من في البيت يركضون، وكان أسبقهم إلى الصائح ثابت الذي أخذ يرتعش ويتهادى حتى وصل على فراش سارة، وهو يحملق فيها ويقول بصوته المخنوق:

- حقاً .. هل تحركت؟ حقاً.. هل تحركت؟

فقالت نوره وهي تنظر إلى سارة وتبكى فرحاً:

- والله إنها حركت يدها.

أخذ الجميع يستفسرون: كيف حركت يدها؟ وهل هي اليمنى أم اليسرى؟ طويلاً أم لا؟ وقد علا البشر وجوههم.

مكث الجميع عندها يطوون ساعات آخر الليل ليروا حركة أخرى منها، فلم تمنحهم شيئاً. فانصرفوا إلى مضاجعهم خائبة آمالهم إلا ثابت الذي ازداد أمله في شفاء عروسه، وأمها التي أقسمت على نورة أن تغادر

إلى فراشها فقد أضناها السهاد.

وفي اليوم التالي تحلق أهل البيت عند فراش سارة وأخذوا يتناولون الطعام والقهوة عنده ولم تنفك نظراتهم عن أطرا فها، وبرحمة من الله عز حركت يدها اليمنى قليلاً فرأوها كلهم فكانت حركة قلوبهم أشد. ومنذ تلك اللحظة أخذ الأمل يدب في الأنفس، واشتد فرح ثابت بعافية صاحبته أكثر من عافيته التي بدأت ترجع إليه شيئاً فشيئا.

*****

مضى أسبوع ثان على سقوط سارة، وثابت يتماثل للشفاء، تزيده كل حركة من سارة أو حتى صوت أنين نشاطاً وأملاً وتمسكاً بالحياة التي كان قد يئس منها، وفي ليلة أخذ الشيخ منصور ابنه إلى الخارج ممسكاً بيده ويشجعه على المسير والخروج، وبينما هو يحادثه مسروراً بصحته، قال له:

- أي بني.. إنك ترى أننا هنا منذ أن جئنا من الحرب، والناس قد عادوا إلى بيوتهم ومزارعهم، ونحن لا زلنا ضيوفا على أخوالك، أشغلناهم وأهملنا أرضنا.. إننا نريد أن نعود فما رأيك؟

نظر الشاب إلى أبيه قليلاً وقال:

- ولكن سارة لا زالت كما ترى..

- لا بأس ننعشها على بعير. ونحملها بهدوء.

حاول الشاب أن يأتي بعذر آخر ليثني أباه عن الرحيل خوفاً على سارة فقال:

- أنت تعلم أن أباها خائف جداً من الذهاب إلى هناك. وقد يعرضه ذلك للخطر.

أمسك الشيخ بكتف أبنه وقال:

- إنه خائف هنا وهناك، ألا ترى أنه عادة ما يغادر إلى الجبال نهاراً ويأتي ليلاً رغم تأكيدنا على سلامته. أما سارة فإنا سنعتني بها هناك أكثر وسنجلب لها الحكماء.. وكما يقال في المثل يا بني: (عز الخيل مرابطها) .

تنهد ثابت تنهدة كادت أن تلفظ مع أنفاسه فتات كبده ثم قال:

- الحقيقة إنني خائف على سلامتها أثناء الرحيل وعلى حياة والدها هناك.

ابتسم الشيخ وقال:

- نعم يا بني أبوها هو جارنا وصهرنا أيضا ولكن ليس من المعقول أن نهمل بيوتنا وأرضنا ونبقى لاجئين ونحن نقدر على العودة، عليك بالطاعة وسوف نرحل، هذا هو قراري النهائي.

جاء صباح اليوم التالي وبعد طلوع الشمس استعد الجميع للرحيل فصنع لسارة نعش مريح ثبت على ظهر البعير، وحملت الجمال والحمير

أمتعة الشيخ منصور ومبارك.

أخذ ثابت يرعى الجمل الذي يحمل حبيبته آخذاً بخطامه وهو راكب على بعير آخر ولا زالت آثار الحمى والمرض ساكنة في عظامه، لكنه أبى أن لا يقوده إلا هو، سلك بالبعير أسهل السبل وجعل يبتعد عن كل حزن، يحادث الجمل ويناجيه ويرجوه أن يرفق بأميرته المريضة. ولم يكن جسد سارة الذي على ظهر الجمل، وإنما كانت كبده أيضاً التي تتفتت كلما هز الجمل أركان النعش.

وصل الركب إلى خميس مشيط فاستقبلتهم النساء ببكاء ونحيب وتعانق الجيران والخلان، والتفت النساء حول النعش، تأملن جسداً طالما أمتع وجهه وضحكاته نساء الحي وفتياته.

أخذ النعش بمن فيه إلى دار ثابت، وقلبه يتقطع حسرات على دخول سارة إلى داره محمولة على الأعناق، وهو الذي كانت أغلى أمانيه أن تلجه على قدميها فرحة مسرورة، لكنه القدر.. لم تكن صحته تساعده بعد على مشاركة القوم في حملها، لكن قلبه وحده كان يحملها، لم يرحمه المشيعون القاسون فقد وصلت همساتهم إلى أذنه وهم يقولون:

- إنها ميؤوس منها. لقد قيل لنا بأنه لا أمل في حياتها.

- إنها أيام معدودة ثم تدفن مع الأموات.. مسكين ثابت.

همسات أوقدت مشاعر الحنق والحزن في وقت واحد، ولكنه أخذ

يعالج الهم بدعاء وتضرع إلى الله أن يخيب ظنهم وأن يشفي عروسه فالله قادر على أن يحي العظام وهي رميم.

جيء بالحكيم إليها فنظر وفحص لكنه لم يبث الأمل في القلب المكلوم بل كان يأسه أقرب، وأمله في حياتها أبعد.

أما ثابت فقد أخذ يلجأ إلى واحد فرد صمد، لم يدع لليل سهاماً إلا أرسلها، ولا مواطن دعاء إلا استغلها، حتى خشي عليه أبوه من أن ينتكس فهو لا يزال هزيل نحيل ترتعش أطرافه.

وفي هجعة من ليل وهو يصلي أمام فراشها يناجي رب الأرباب فارج الكربات، إذا بسعلة خرجت من قعر صدرها. خفق قلبه فأخف صلاته وما أن بدأ في التشهد حتى سمع ما ارتجفت منه نياط قلبه، لقد سمعها وهو تدعوه بصوت ضعيف جداً:

- ثابت .. ثابت.

انتهى من صلاته ثم نهص إليها مسرعاً. وهو يقول بصوت ترعشه الفرحة:

- لبيك.. لبيك يا سارة.

لكنها كانت تواصل الدعاء دون أن ترد عليه. جثا على ركبتيه عند رأسها وهو يبكي فرحاً لا يكاد يسعه مكانه، همّ أن يحمل رأسها في حجره

فخشي أن يؤذيه فدنى منها، ونشيج الفرحة يزداد وهو يردد:

- لبيك.. لبيك.

كانت تناديه، وهو يناجيها، ويشكر الله ويحمده، ويثني عليه، لم ييأس من رحمة الله ولم يقنط، كان دائماً متمسكاً بحبل الرجاء في ربه.

وانطوت ليلته بكاء وفرحة، ينظر إلى الباب لعل أحداً يسمعه فيهنئه، ويشاركه فرحته التي لم يسعها قلبه، لكن أحداً لم يستيقظ. وجعل يحادث نفسه:

- ما بالهم، لماذا لا ينهض أحد فيهنئني؟! ما هذا النوم الثقيل؟!. كيف يهنئهم النوم وسارة مريضة؟!.

لم يرد يريد أن يزعج والديه بالدعاء ويوقظهما، ويخشى أن يذهب ليوقظ نوره ليبشرها فيعود ولا يسمع سارة مرة أخرى.

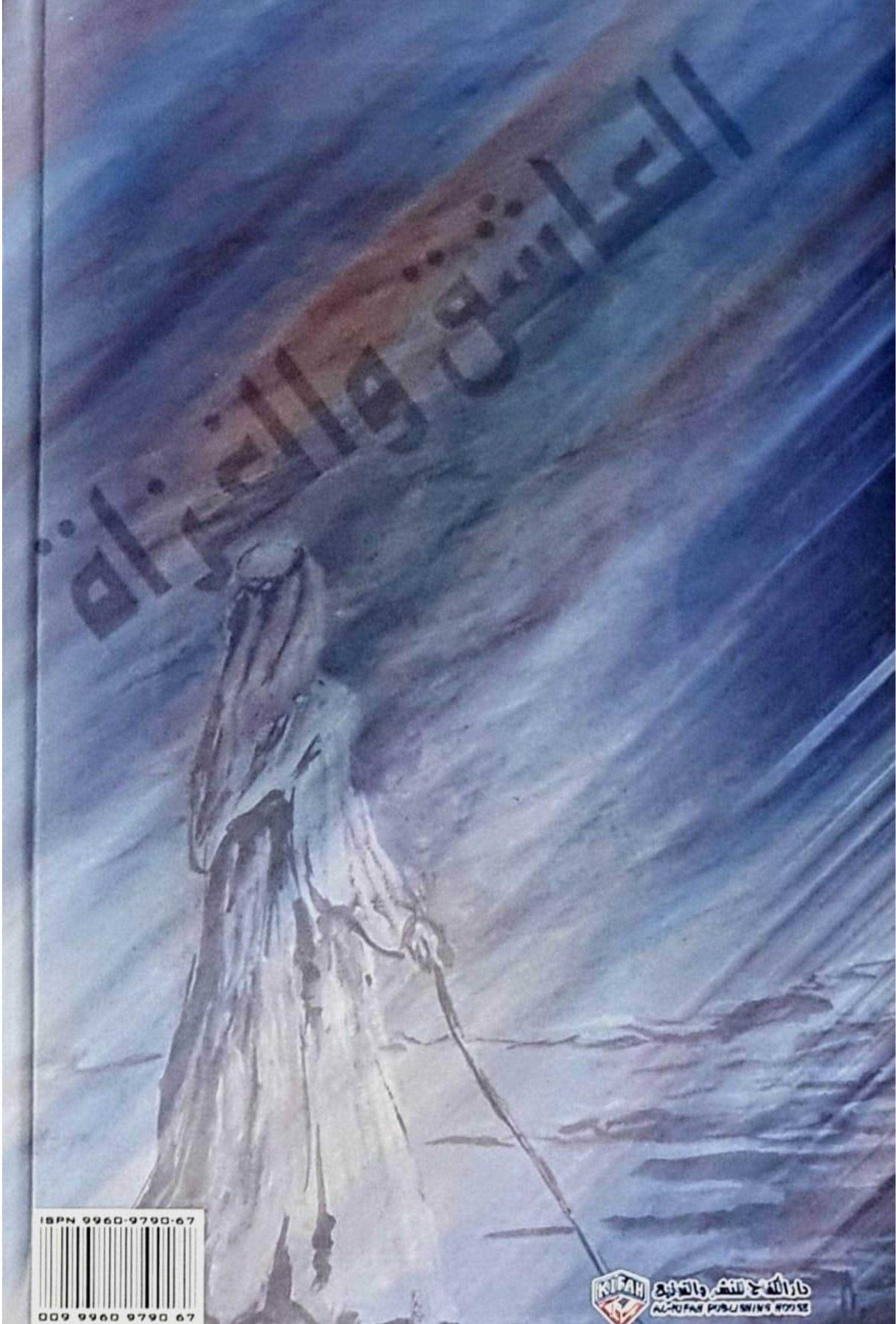
وجاء الفجر وهو يسامر صوتها حيناً ووجهها الجميل الشاحب حينا آخر. وصلى الفجر في المسجد وبشر من بشر، فارتجت القرية ذلك اليوم بالفرحة وبعد يوم آخر تفتحت عينا سارة بعد طول غموض فطارت الأفئدة تسبح في حياتها فرحاً وسروراً. أما ثابت فقد غاص في لجيها وهي تفتح وتغمض ولا ترى أمامها إلا من كان أخر من كان في قلبها حينما سقطت.

ابتسمت بهدوء.. في وجه ثابت فما وسعته الفرحة، غالب دموعه أمام الحاضرين من الأهل لكنه لم يفلح في كتمها، فوضع كفه على عينيه، وانخرط في البكاء. مرت يدها الضعيفة إلى يده الأخرى التي على ركبتها فقبضها بضعف وهي تتخمر لتبكي. فقام كل من حولها وهم يبكون حتى أبويها غادروا من عندهما، انكب على جبينها يلثمه برفق لتكون أول قبلة لها وهي مدركة منذ أن عرفها .. وكانت عناية الله عز وجل دائماً هي الملاذ الدائم لكل مضطر إذا دعاه وأناب إليه.

شفيت سارة بعد أسابيع من وصولها إلى خميس مشيط، وأقيم حفل زواج آخر، رقصت فيه النساء وقدمت الولائم.

وانتهت الحكاية.

*****



ISBN 9960-9790-67
009 9960 9790 67